همسات مصرية

رواية



أسامة على الصادق

همسات مصرية

همســـــات مصرية

أسامة علي الصـــادق

......

الطبعة الأولي يناير ٢٠١٠

الناشر: المؤلف

ت: ٢٦٠٧٤٥٢٥

م : ٠١٢٧٩٧٠٠٣٢

....

تصميم الغلاف:

المهندس/طارق الصـــادق

......

هَمســاتَ مصرية

(روايــة)

تأليف

أسـامة علـي الصـادق

بداية النبت

أقبل الصيف وفى أحد المنازل القديمة يوجد منزل مكون من طابقين وتعلو واجهته بعض النقوش والزخارف التى تعطى انطباعا برقى قاطنيه ، يعيش "إسماعيل افندى شحاتة" المدرس الأولى بقرية "السبع" مع عائلته المكونة من زوجته "نفيسة هانم " وأبنه "طارق" الذي بلغ من العمر خمسة أعوام وابنتيه "عائشة" ذات الثلاث سنوات والرضيعة فاطمة.

همس إسماعيل في أذن زوجته:

- جهزي نفسك أنتِ والعيال علشان ح نسافر "عزبة كتكت" آخر الأسبوع ونقضى أجازة المدارس هناك وكمان أخلص الشغل اللى ورايا وأشوف امى واخواتى البنات.

غمرت الفرحة والسرور صدر نفيسة هانم وظهر ذلك علي وجهها الطيب:

- من بكره ح أكون جاهزة وكمان أنزل السوق أشترى شوية حاجات علشان نينة وعمتي "فتحية وعمتي عيشه" .. انهمكت السيدة فى أعمال المنزل بعد ان غادر الزوج منزله للقاء بعض الأصدقاء.

قرية "السبع" هى إحدى القرى الكبيرة التابعة لمديرية "الفؤادية" قبل أن يتحول اسمها إلي محافظة كفر الشيخ ، يقطن تلك القرية العديد من الأثرياء أصحاب الأراضي الزراعية التى تتعدى مساحة كل قطعة مئات الأفدنة والتى

كان البعض يطلق عليها اسم "الوسية" والبعض الآخر العزبة .. فهذه عزبة شوكت باشا والأخرى عزبة بركات بك وهكذا ......

القرية كبيرة ومكونة من ثلاثة أجزاء "نواحي" وتحددت حدود النواحي دون تدخل أحد فى هذا التقسيم وهى أقرب الى المدينة منها الى القرية المتعارف عليها ولكنها لم تصبح بعد مركزا فى التقسيم الإداري ومكونة من:

ناحية يقطنها الفلاحون والمزارعون .. عبارة عن مباني صغيرة من الطوب اللبن يعلو تلك المنازل حطب القطن وقش الأرز والممرات التى بين تلك الدور ضيقة والدخان المتصاعد من أبنيته واضحة خاصة فى الصباح الباكر وأيضاً في المساء حيث يتصاعد الدخان من تلك الدور قُبيل غروب الشمس حين عودة الفلاحين من الحقول.

طعام الإفطار عادة يتكون من بقايا طعام العشاء. كانت غالبية تلك الدور ترصع حوائطها السفلى بأقراص "الجلة" المصنعة من روث البهائم وكان ذلك شيء عادي ان تسير بداخل تلك الحواري وتشاهد النساء وهن يخلطن روث البهائم مضافا إليه التبن بل والبعض من الأبناء والبنات يتجولون بالحواري لجمع ""روث البهائم " عائدين به الى أمهاتهم وكان يجفف تحت أشعة الشمس ثم يحتفظون به كوقود جاف للأفران خاصة لإعداد الخبز وبالأخص خلال فصل الشتاء نظراً لكثرة استخدام نار الكانون.

سكان تلك الناحية يبدو علي أصحابها رقة الحال ، فرب الأسرة عادة يسير حافي القدمين يرتدى تحت الجلباب رداء طويل ويطلقون عليه اسم " قميص"

عبارة عن جلباب قصير وطاقية على رأسه فى الغالب غلفها الإهمال والقذارة وتنسلت بعض حوافها كما أن ذقنه غير حليقة ولا يحلقها إلا حينما يذهب إلي الحلاق "المزين" لقص شعره أو فى المناسبات حين ُيقبل أحد الأعياد الدينية او لحضور حفل زواج قريب أو جار وعادة ما يحلق شعره "زيرو" والبعض يتبعها بالموسى حتى تصبح رأسه لا معه كي لا يقصه على فترات متقاربة وبالتالي يوفر تلك النفقات وهم في العادة لا يستخدمون النقود فى معاملاتهم إلا نادراً ولكن معظم تعاملاتهم تتم بالمقايضة ، فيعطى المزين بيضة نظير هذا العمل كما يعطى حلاق الحمير بيضتين عند قص شعر حماره وغالبا ما يتجه الحمار وصاحبه لشخص واحد ليتولي قص شعرهما.

بعد هذا يصطحب الفلاح حماره متجها إلي الترعة فينزلا معا للاستحمام فيقوم الفلاح بدعك جسد الحمار وبعد تأكده من نظافته يتجه إلي الشاطئ ليلقي بجسده علي الرمال والأتربة ، يتقلب فيها إلي أن يغطي جسده تماما ثم يتجه إلي الترعة مرة أخري ويقوم بدعك جسده بالطين كأنه الصابون ثم يغتسل بالماء.

أما عن الأبناء فقد شبوا على نفس الوتيرة ، فالأطفال حفاه أيضا والصغار منهم ُتعقد "تربط" لهم أمهاتهم الجلباب فوق الخاصرة ليصبح نصفهم السفلى عار منعا لتلوث ملابسهم بفضلاتهم الشخصية مما يكلف الأمهات غسل الملابس علي فترات قصيرة وهكذا تستمر قذارتهم أما الذباب فهو رفيقهم باستمرار.

البنات والفتيات والنساء يستخدمن غطاء الرأس مع الجلباب الطويل ولا يبدو من أجسادهن عار **إلا** الوجه والقدمين والكفين وقد أثرت الأعمال اليدوية الشاقة وأشعة الشمس علي النساء فأصبح لون البشرة غامقا ولابد من تواجد الطرحة السوداء فوق الرأس وأسفلها "المنديل بقوية" أو التربيعة وهن يهتممن بنظافة أسنانهن بدعكها بتراب الفرن أو الكانون ولا بد أن تكون بيضاء باستمرار حيث يسعدهن هذا وخاصة أثناء الحديث والضحك وما أكثره.

*****

الناحية الثانية : يقطنها بعض أبناء القرية ممن أنعم الله عليهم بالمال أو العلم أو من بعض الغرباء الوافدين من الموظفين العموميين ، تتكون تلك الناحية من ميان مكونة من دورين ومشيدة بالحجر الأحمر وتغطيها من الخارج دهانات من المصيص الملون ليغطى تلك الأحجار وعليها بعض النقوش التى تشابه المباني القديمة فى القاهرة وحى مصر الجديدة كما أن أسقفها يتم تغطيتها بعروق وأعمدة وألواح خشبية وتلك المباني جميلة الشكل والمنظر ومزودة بفراندة والبعض يزين الفراندة أو التراسينة ببعض النباتات والزهور المعتنى بها.

هذه هى الطبقة المتعلمة ، فى الغالب يسكن بها رئيس النقطة وناظر المدرسة الأولى "الابتدائي" والمدرسين وصراف البلدة وموظفي مكتب البريد وموظفي الصحة وطبيب المستشفى ومهندس الري بالقرية وبعض التجار الذين يعود نسبهم إلي تلك البلدة بالإضافة الى بعض الغرباء القادمين للعمل بها.

تلك الطبقة أرقى حالا من الطبقة الأولى لتحسن دخولهم وقد نال بعضهم قسطا من العلم والبعض عاش فى البندر قبل المجيء الى القرية وقد أثر ذلك في سلوكهم وعاداتهم سواء بالحياة الراقية او لاحتكاكهم ببعض كمتعلمين.

نساء تلك الطبقة يرتدين الفساتين والبعض منهن يستخدمن أدوات الماكياج ويتلطفن فى الحديث ويستخدمن العطور الرخيصة الثمن كما يُزين معاصمهن وصدورهن بالذهب والحلي ، أما عن ملابس الرجال فإما أنهم يرتدون البدل الكاملة والطربوش أو الجلباب البلدي وعليه بالطو كما أنهم يلبسون الأحذية ، الأبناء والبنات لهم نفس الهيئة والبعض منهم يتحدث بلهجة أبناء المدن وقد انعكس كل هذا على منازلهم من النظافة والعناية ولهذا زود كل منزل بحجرة لاستقبال الضيوف وتلك الأسر تستخدم الطبلية لتناول الطعام كما يستخدمون موقد الكيروسين فى إعداده والبعض منهم يقتنى خادمة.

****

الناحية الثالثة يقطنها أصحاب الأراضي والإقطاعيات الكبيرة وهؤلاء شيدوا العديد من الفيلات أو القصور "السرايا" لضخامة مساحتها وكثرة حدائقها وكل سرايا من تلك تشاهد أمامها سيارة ملاكي أمريكية أو إنجليزية الصنع كما يقوم بالحراسة على بابها خفير أو أكثر كما يقف أمام كل سرايا "كاريتا" وهى مركبة ذات عجلتين ويجرها حصان أو بغل وعادة ما يستقلها أصحاب الأرض وأبناءهم للتوجه الى العزبة لمتابعة العمل بأطيانهم الزراعية.

هذا هو حي طبقة الملاك وأصحاب الأرض ، يرتدى غالبية رجالها الجلباب البلدي الفاخر ويحمل في يده منشة الذباب ذات اليد المصنوعة من العاج وحين التوجه الى المركز أو القاهرة فإنهم يرتدون البدل على أحدث الموديلات فهذا لباسهم ودائما تجدهم مهذبي الشوارب والذقن حليقة والخواتم الذهبية بالأصابع وبعضهم يتجه الى الحقل ممتطيا فرسا بديعا ذات سرج مرتفع الثمن.

الزوجات يستترن بداخل الفيلا أو القصر ولا يقمن بالزيارة إلا لمن هن فى نفس المستوي من الأغنياء أما الأبناء والبنات فالعناية على أعلى مستوى وأبناء تلك الطبقة يستخدمون عددا من العاملين بمنازلهم ، أكثر من خادمة وطاهية وسائق ومسئول عن الحديقة وبواب يقف أمام الفيلا وهم جميعا من أهل قرية السبع وبكل فيلا فنطاس مرتفع تدفع إليه المياه من باطن الأرض بطلمبة ماصه كابسه تعمل يدويا يقوم عليها عامل أو أكثر كما تزود تلك الفيلات بمولد للكهرباء.

الأبناء والبنات على أرقى مستوى فهم يرتدون احدث الموضات التي ظهرت وملابسهم منتقاة من المحلات الفخمة مثل شيكوريل وسمعان "صيدناوي" وعمر افندى وداود عدس ، فكل تلك المحلات لم يدخلها العامة إلا بعد قرارات التأميم اللاحقة فى العصر الناصري ، يتحدث أبناء تلك الطبقة برقة ورومانسية مقلدين الحياة الأوربية الى أقصى درجة كما أنهم يتميزوا بالوسامة والشكل الجميل والمظهر الراقي.

****

طارق هو الابن الأكبر فى أسرة إسماعيل أفندي شحاتة ونفيسة هانم وتلاه طفلتان الأولى بفارق ثلاثة أعوام والثانية مازالت رضيعة ، ذات يوم أخبره والده بأنه فى العام الدراسي القادم سوف يُلحقه بالمدرسة التى يعمل بها بالسنة الأولى وكانت فرحته غامرة لأنه أثناء الدراسة لا يجد أحدا يلاعبه فى الشارع سوى الأصغر منه وكان هذا يسبب له ضيقا كبيراً بأن يلاعب الصغار!!

نهاية الأسبوع توجهت الأسرة الى "عزبة كتكت" يستقلون أتوبيسا عتيقا يسير بهم ونصف مقاعده فارغة من الركاب والأتربة تهاجمهم خاصة حين توقفه نظرا لأن الطريق ترابي ولم يُعبد أو يرصف وكل ما يقدم للطريق للمساعدة لسير المركبات هو توفر بعض العمال لتسوية الأماكن الغير ممهدة وكل واحد منهم يحمل دلواً مربوطا بحبل يدفع به الى الترعة المجاورة فيمتلئ بالماء ويقوم برش المياه على الطريق وبعد سير المركبات فوقه تتحسن حالته كما تقلل من كمية الأتربة المندفعة لداخل الأتوبيس.

بلدي وصبايا وأحلامي

وصلت الأسرة الى أول الطريق الذي يؤدى الى "عزبة كتكت" وهى بلدة الأستاذ إسماعيل الذي كان متجها لزيارة والدته وشقيقاته. شاهدهم بعض الفلاحين فأقبلوا يصافحون الأب ويحيونه مهللين:

ـ "نورت البلد يا إسماعين افندى. منورة يا ست هانم. أهلا وسهلا. والله لكم وحشه. بسرعة يا وله يا براهيم هات الِحمار"

أقبل الابن إبراهيم والذى لم يبلغ الثامنة من عمره بعد ساحبا حمارا بحبل والذي يبدو عليه التأفف والضيق كأنما غير مستريح لاستقبال العائلة ، تحدث والده:

ـ "أتفضل أركب يا إسماعين أفندي" .. ايوه كده وخد الحاجات دي معاك .. ايوه وخد معاك بسم الله عليها ألعروسه الصغيرة على رجلك .. مع السلامة .. معاهم يا وله وخالي بالك منهم وخليك حنين على الِحمار .. ده غلبان وبيشجى .

امتطى إسماعيل افندى الحمار حاملا ابنته وبعض أغراضهم ويتبعه كل من ابنه طارق وبجواره أمه التي تحمل شقيقته الرضيعة ، كل بضعة خطوات يقابلهم بعض العامة من القرية فيقبلون لتحية العائلة ومعظمهم يتقدم للمصافحة يحيون الأب بوجه باسم والنساء تأتين للترحيب بزوجته ينثرن عليها أجمل

الكلمات الجميلة المعبرة عن الحب وُحسن الاستقبال مع احتضانها وبعض القبلات المتبادلة.

وصلت الأسرة الى الحارة التى بها منزل الجدة والعمات وقد شاهدت إحدى الفلاحات الأسرة من فوق سطوح منزلها حيث كانت مشغولة فى تجميع بعض الحطب ، أطلقت بعض عبارات الاستحسان ونبهت الكثير من الناس ولهذا تدافعت العمات الى الشرفة فشاهدن شقيقهن الأكبر وأسرته فأسرعن يتدافعن الى باب المنزل الكبير لاستقبالهم ، ترجل إسماعيل افندي وترك الحمار مع إبراهيم بعد ان أعطاه عدة مليمات سعد بها كثيرا وابتسم بعد أن كان متجهما وغادر الحارة مصطحبا حماره متجها الى والده بينما دخلت الأسرة الى دار الجدة واستقبلهم الطقس المعتدل الرطب الأقل حرارة عن خارجه بالإضافة الى دفيء الاستقبال.

أنحنى إسماعيل على يد أمه مقبلاً وقد أسعدها هذا بينما العمتان تقبلان نفيسة هانم ويحتضناها وتقبلان بنات شقيقهما وجلس الجميع حول الجدة التى أشارت الى طارق بأن يقترب منها لأنها تتوق إلي أن تقبله فاتجه إليها فقبلته وربتت على ظهره ثم استكملت استقبال باقي أفراد الأسرة.

بعد قليل حضر "فروح" أبن شقيق إسماعيل أفندي الى جدته وفوجئ بوجود أسرة عمه فأسعده هذا فقد عثر على صديقه طارق والذي سوف يشاركه اللعب خلال الأيام القادمة ، كان طارق يشعر بسعادة حين يلقي أبن عمه هذا فهو قريب منه فى العمر وقد ألتحق بالمدرسة منذ عامين.

غادر الطفلان منزل الجدة للهو وقد نبهت عليهما الجدة باللعب قريبا من الدار ، انطلق طارق وابن عمه فروح الذي كان يحاول تعليم طارق كيفية العد حتى رقم عشرة ويكتب بعض الحروف بعصا على الأرض المتربة وطارق فى دهشة مما يقول كما أنه قص عليه قصة الثعلب والقرد ميمون.

أسعد هذا طارق وشعر أن فروح قد كبر ونضج بينما هو مازال صغيراً ولا يعلم شيئاً ، ظل يستمع إليه باهتمام ثم تطرق فروح بحديثه عن بعض الأقارب الذين قدموا من القاهرة فى الأجازة الصيفية بينما طارق لا يعلم لماذا هم أقاربه ولكن ابن عمه كان متفهما وواعيا لدرجة القرابة كعادة القرويين حيث كان يربط العائلات بعضها ببعض حتى يتوصل الى درجة القرابة رغم ان طارق لم يع هذا بل أنه لم يعد يتذكر ما قاله "فروح" من كثرة ما ذكره من تلك الأسماء.

قضى طارق ليلته الأولى يتقلب فى فراشه من شدة الحرارة ولسعات البراغيث التى لم تجعله يهنأ فى نومه ورغم هذا استيقظ فى الصباح الباكر على أصوات سجع الحمام والذى كان شجيا جميلا أتبعها أحد الديوك بصياح لينبه الأفراخ الى الاهتمام بأعمالها ورعاية الكتاكيت ، شاهد جدته جالسة أرضا فوق حصيرة صغيرة وأمامها شاليه مرتفعه نسبيا مصنوعة من النحاس والدخان يتصاعد من بعض "القوالح" المشتعلة لإعداد فنجان قهوة لضبط رأسها المفكوكة.

كانت الجدة دائما ما تشكو من أن رأسها مفكوكة وتشعر بصداع ولا علاج لها إلا بفنجان قهوة او بشمه من علبة النشوق او بضبط رأسها وذلك بربط

طرحة حول رأسها وتأتي بعمود خشبي رفيع فى طول المسطرة ودائري وله رأس عبارة عن قرص خشبي مسنن من الخشب وتضعه بين رأسها وبين الطرحة الملفوفة وتلفها بهدوء وفى الغالب تقوم إحدى العمات بهذا العمل حتى تشعر بأنه لا مزيد أمامها من اللف لأن قطعة الطرحة أصبحت لا تتجاوب معها. تعيد اللف عكسيا وتنزع الطرحة عن رأس الجدة التى تشعر بعدها براحة قائلة: الحمد لله "انفكت" خلاص.

كان هذا هو علاج الجدة من الصداع ، كما أنها كانت تستخدم فى بعض الأحيان صَدفة من الأصداف البحرية وهى صغيرة الحجم وطولها لا يزيد عن عشر سنتِمترات وعرضها ثلاث سنتمتر وشكلها مثل القارب فإذا مرض أحد بالرمد الربيعي وهذا دائم الحدوث لعدم النظافة وكثرة الذباب وكثرة المصابين بهذا المرض من أبناء الفلاحين فتضع الجدة بعض الماء بتلك الصدفة وتقوم بحك الماء بداخل الصدفة بقطعة من الزجاج القوى فينتج محلول أبيض مثل اللبن ولكنه أقل منه سمكا ثم تضع بعض النقط فى العين المصابة مرتين يوميا لمدة يومين يعافى بعدها المصاب وتصبح حالته جيدة.

اليوم التالي خرج طارق برفقة فروح أبن عمه للتجول بالقرية ، كان البعض ممن يعرفونه يرحبون به والبعض يتساءل عن شخصيته كما أقبلت بعض النساء يقدمن التحية له ببعض الكلمات المعبرة عن هذا مع إضافة بعض القبلات ويطالبونه بحمل تحياتهن الى أمه وتخبرنه بأن الخالة (.......) ترسل لها بمزيد السلام.

أستمر تجوالهما بالقرية الى ما بعد الظهيرة وقد أثرت أشعة الشمس عليهما خاصة "طارق" الذي لم يتعود على السير تحت أشعتها لفترات طويلة كما أن أبن عمه كان يسير حافي القدمين مما أثر على قدميه من سخونة الأرض ولهذا عادا الى منزل الجدة ، بعد قليل تناول طارق طعامه مع فروح فقد سبقتهما الأسرة وبعدها أخلد الى نومه لإستعواض أرق ليلة الأمس وما صادفهما اليوم من متاعب تجوالهما.

فى المساء طلب الأب من زوجته ان ُتعد ابنه "طارق" لأنه سوف يصطحبه لزيارة بعض أصدقائه بالقرية ، انتابت الطفل حالة من الضيق لعدم مرافقته لابن عمه بينما سيرافق والده وهو كاره لهذا ، سار بجوار والده الذي كان يتلقى التحية والترحيب من كل إنسان يلقاه سواء كان رجلا أو امرأة.

وصلا الى منزل يقع خلف منزل الجدة لكن من الشارع الخلفي والذي يبعد مسافة عن منزل جدته ، علم إنه منزل "تاناس" كما أبلغه به والده وبعده علم من أبن عمه بأن الاسم الشائع فى القرية هو "الخواجة طناش" والذى يمتلك ماكينة طحن الدقيق بالبلدة وهو من أصل يونانى.

بمنزل الخواجة تقابل مع الخالة "مارى" زوجته وأقبلت أبنتها بشرى ترحب به ، أصابه الخجل من تعامله مع البنات الغريبات عنه ، بعد عدة دقائق شعر بالأمان وفارقه الخجل ولعب معها وتبادلا الضحكات المتتالية التي ملأت أرجاء المنزل بالبهجة والسعادة.

كان لبشرى شقيق وحيد يكبرها بعشرة أعوام أما هى فقد تعدت السنوات الست بعدة أيام ، سمعت أمها تحادث أباها وإسماعيل أفندي وتسأله النصيحة بالتقديم لأبنتهما بالمدرسة الأولى هذا العام وقد شجعها إسماعيل افندى وأخبرها بأنه ينوى أن يقدم لأبنه بالمدرسة هذا العام رغم إنه لم يبلغ السادسة من عمره بل يقل بضعة أشهر عن السن القانونية.

كان منزل بشرى مجاورا لمنزل صديقتها "سارة" ابنة ناحوم ولهذا اصطحبت بشري صديقها طارق للعب مع سارة ، راود طارق شعوراً بأن سارة وبشرى أكبر منه عمرا نظرا لطولهما الفارع بالمقارنة به ، أخبرت "بشرى" صديقتها "سارة" بأن والديها قررا إلحاقها بالمدرسة الأولى هذا العام ، شعرت الطفلة بسعادة كبيرة وتوجهت لتخبر والديها بما قرره والدا صديقتها ، تشجعت أمها لهذا الخبر بينما عارضه والدها لأن هذا سيكلفه نفقات لشراء كراسات وقلم رصاص وهذه مصاريف لا لزوم لها ، أخبرته أمها بأنها سوف تدبر تلك المصروفات من نفقات المنزل وعندها تحدث " ناحوم" قائلا لزوجته بأن هذا دليل على أن ميزانية المنزل كبيرة ولهذا فسوف يخفضها.

حدث نزاع بين الوالدين فتركتهما سارة واتجهت للعب مع صديقيها بالفناء الداخلي لماكينة الطحين والتى تواجه المنزلين ، بعد قليل شاهدوا إسماعيل أفندي يجالس ناحوم على المصطبة الخارجية للمنزل ويتحدثان واشتركت الخالة "ألين" أم سارة فى الحديث.

قضي الأطفال أمسية جميلة لم يكن طارق يتوقعها خاصة أن حديث الطفلتين كان عذبا كما أن ملابسهم نظيفة وجميلة وكل واحدة منهن تصفف شعرها بطريقة تزيدها جمالا ، كانت "سارة" تقارب ُبشرى فى الجمال ولكنها تزيد عنها حجما سواء فى الوزن أو الطول ، طلبت الخالة "ألين" أم سارة من طارق ان يعودهم يوميا ليلاعب أبنتها حيث لا أصدقاء لها سوي بشري ، وافق على هذا مسرورا ووعدها بأن يأتي للعب معهن.

أصبح طارق يمضى فترة الصباح مع فروح أبن عمه يعود بعدها الى منزل جدته فتصرخ به أمه للقذارة التى أصبح عليها من اتساخ ملابسه بالتراب والطين ، لم يكن يبالى بصراخها فكل ما كان يهواه ويرغب فيه هو اللعب ، كل مساء يتجه للعب مع كلٌ من "بشرى وسارة" فيجلسوا للعب بهدوء او لسماع حكاية من إحدى الأمهات أو لعب الكوتشينة والتى كان يجهل اللعب بها.

أسعد هذا أمه كثيرا أن يشارك باللعب مع كلٌ من "بشرى وسارة" حيث يعود بعدها كما خرج نظيفا ولم تتسخ ملابسه او تغلف يداه بالطين.

فى إحدى المرات أثناء تجوله بالقرية برفقة "فروح" ابن عمه هاجمته بعض الدبابير الحمراء فقرصه أحد الدبابير فصرخ من شدة الألم وتورمت يداه وتوجه لعمته التى قامت بعلاجه بوضع قطعة من الطين على مكان لدغة الدبور مما أدي إلي ان منعته أمه من الخروج صباحا برفقة "فروح" أبن عمه الذي كان أكثر ذكاء منه ويعلم أماكن تلك الحشرات ويتجنبها بحكم الخبرة.

لم يعد أمامه اى مكان للعب إلا مع صديقتيه الجميلتين ، فى صباح أحد الأيام اتجه للعب معهما وعلم بأنهما سوف تتجهان للأرض الزراعية والتي يمتلكها "ناحوم" والد سارة ، همست سارة في أذنه بمصاحبتهم خاصة أنهما قد حصلا على إذن من والدته التي وافقت شريطة أن يعودها نظيف الملبس ولا تتسخ يداه.

رافق الصديقتين الى قطعة الأرض والمزودة بجدول مياه عميقة نسبيا تروي الزراعات بالمياه ويمكن لأي إنسان أن يلهو بها خاصة فى أيام شهر يونيو الحارة. عرضت عليه الطفلتان أن يلهوا فى المياه خاصة أن المكان لا يرتاده اى شخص فى أيام السبت والأحد من كل أسبوع.

تخلصت الطفلتان من الجلباب وفعل مثلهما ونزلوا الى الماء للهو واللعب وهم سعداء خاصة أثناء مطاردة حيوان أبو "دنيبه" واستمر لعبهم لفترة طويلة حتى حضرت إحدى الأمهات طالبة منهم الخروج من المياه والحصول على راحة وتناول الطعام. أصبح هذا أهم ما يسعده فى اللعب كما أن الطفلتين قد سعدتا بوجود عنصر آخر معهما ولهذا أنصب اهتمامهما عليه.

زادت صداقتهم بعد مضى عدة أسابيع وفي بعض الأوقات ينامون على الحصيرة وقت الظهيرة تجنبا لحرارة الصيف ويتناولوا طعامهم سويا ولم تكن أمه أو أبوه أو اى أحد من أسرته يعارض هذا حيث يعودهم آخر النهار وهو على أحسن ما يكون. كما تنافست الطفلتان فى المحافظة على ملابسه حتى يظل يلعب معهن.

فى مساء احد الأيام جاءه أبن عمه وعلى وجهه أثر من ضيق بأنه تركه وذهب ليلاعب بنات الخواجات ، لم يستطع طارق تفهم مقصده فأعاد حديثه بأنه يلاعب بنات الكفار ، لم يكن يعلم ما معنى تلك الكلمة ، عرض عليه طارق اللعب معهم فأسعد هذا فروحا . فى اليوم التالي اصطحب طارق فروحا الى مكان لعبهم و هناك قابلته السيدة "ألين" والدة "سارة" طالبة منه ان يعودهم آخر النهار لاصطحاب ابن عمه بعد أن ينتهي من اللعب ولكنه أخبرها بأنه يرغب فى اللعب معهم هو الآخر ، نظرت إليه ثم أخبرته بأنه رجل ولا يجب أن يلاعب البنات.

منذ تلك اللحظة تفهم طارق ووعى بأن الرجال لا يجب أن يلاعبوا البنات ، ظل هذا الفكر ملازما له وكل عام يعود للقرية فيشعر بأنه لم يصبح رجلا لأنه مازال أصغر من فروح أبن عمه ولهذا ظل يلاعب الطفلتين حتى بلغت أعمارهن الثانية عشرة وقد تغيرت الملامح وكبرت الأجساد وبدأ طارق فى النظر إليهن بتركيز أكثر مما سبق وقد لاحظت البنتان ذلك ولم يصيبهما الضيق لهذا بل زاد من سرورهما وكل واحدة منهن تسأله من هى الأكثر جمالا ويجيبهما أنتما الاثنتان جميلتان.

يوم السبت من كل أسبوع هو اليوم المحدد لراحة ماكينة الطحين من العمل حيث يقوم "زناتي" العامل عليها بإجراء صيانة لها ، اتجه ثلاثتهم الى داخل فناء الماكينة للعب كالمعتاد ، كان الأطفال الثلاثة يجرون هنا و هناك ويقعون أرضا فوق الحصيرة أو تلال التبن الموجود بالمنطقة ، كانت الفتاتان

تتعريان قليلا من أثر سقوطهما أرضا ولم يكن هذا يثير اهتمامهما لصغر الأعمار والتعود على ذلك ، أثناء اللعب ُسمعت صرخة ونظر طارق فشاهد زناتي جاثما فوق جسد "سارة" وهى ترفس برجليها وتصيح طالبة النجدة وزناتي يحاول منع صياحها بوضع يده على فمها ، لم ينتبه طارق ووقف صامتاً وقد غشيه حزن وخوف شديدين ولكن "بشرى" تحركت بسرعة إلي زناتي وعضته فى ذراعه فدفعها بعيدا فاصطدم رأسها بالحائط وسمع صرختها والدماء تخرج من فمها ، مازالت "سارة" تقاوم وبدا جسدها يتعرى من أسفل ولم يدرك طارق ماذا يريد هذا العامل منها لكنه تأكد بأنه شيء سيء لأنها تصرخ طالبة النجدة وقد أستطاع أن يشل حركتها وخمدت مقاومتها فتنبه لما حدث "البشرى" ولإصابتها والآن جاء الدور على "سارة".

نظر طارق يمينا ويسارا فشاهد ماسورة حديدية فى طول المسطرة فأمسك بها وتذكر حديث بعض الناس بأنك إذا أردت قتل الثعبان فأضربه على رأسه ، هوى طارق بالماسورة الحديدية على رأس "زناتي" الذي نظر إليه نظرة مرعبة أخافته فنهض من فوق سارة يسبه بعبارات لم يتذكرها وسار متقدما فى اتجاهه.

شاهد طارق زناتي قادما في اتجاهه بحجمه الكبير مغبر الوجه فأيقن انه هالك ولهذا أسرع بالجري أسفل معدات ماكينة الطحين واختبأ بين السيور الضخمة والعجلات الحديدية الكبيرة التى يزيد قطر كل الواحدة منها عن المتر ، شاهد "طارق" العامل "زناتي" وهو يحرك يداً حديدية كبيرة والتى بدورها

حركت عجلة كبيرة سمع علي أثرها هدير ماكينة الطحين بينما شاهد على الجانبين تحرك العجلات والسيور فتخوف من صوتها ومنظرها ثم أعقبها سماع صوت ارتطام شديد أعقبه عويل وصراخ نساء وهنا نظر "زناتى" للجهة الأخرى محاولا الفرار ولكنه أصطدم بتلك اليد التى كان يحركها حيث كانت تدور بسرعة مع دوران الماكينة فاصطدم بها وُسمعت صرخته وشاهد "طارق" جسد "زناتي" يرتفع لأعلى ثم يسقط فوق أجزاء الماكينة.

حضر الخواجة "طناش" وبعض الفلاحين واستطاعوا إيقاف الماكينة عن العمل وأقبل البعض لمحاولة مساعدة طارق على الخروج من بين الآلات أما المنطقة الخلفية للماكينات والتى كانوا يلعبون بها فكانت تغطيها الدماء حيث كان جسد "زناتي" ممزقا بعد ان فارق الحياة أما "سارة" فبدت آثار دماء على ذراعيها ووجهها بينما "بشرى" التي كانت الدماء تغطى جزءا من وجهها وصديقهم طارق بدا عليه الخوف والجزع وقد اتسخت ملابسه ووجه بزيوت الماكينة.

كـل ده كان ليـه؟

انتشرت الأخبار فى القرية بسرعة فائقة (بأن الواد النجس "زنـاتي" الله يجحم روحه مطرح ما راح كـان عـايز يعمـل كذا .... فـى البت سـارة بنت اليهودي ناحوم .. كل فرد حمل خبرا وكل فرد استنتج نتيجة ولكن الخبر الأكيد أن طارق أبن إسماعين افندى طلع راجل أبن راجل ووجف جدام المجرم أبن المجرم زناتي).

حضر الخفر والعمدة ثم تبعتهم الشرطة من النقطة والمركز والنيابة وعاينوا المكان والجثة وتم سؤال كل المتواجدين لحظة الحادث.. كان الحديث المؤكد من فم "طارق" الذي شاهد وعاين الحادث منذ البداية حتى النهاية ، قام الطبيب بالكشف على الفتاة "سارة" وتبين إصابتها ببعض الخدوش من المتهم أثناء محاولته نيلها والتعدي عليها لكن عدا ذلك لم يكن هناك شيء يذكر وهكذا شعر أبناء القرية بأن ربنا سترها مع ناحوم "المرابي" الذي يقرض الناس الغلابة بالفايظ "الربا".

كل تلك المعلومات كانت جديدة على مسامع "طارق" والذى لم يعلم بأن والد سارة ناحوم هو يهودي وأنه يقرض الناس بالربا الفاحش وأنه يتاجر فى الحبوب والمحاصيل الزراعية والمشغولات الذهبية.

فـى أحـد الأيـام وجـه طـارق سـؤالا الـى والـده: لمـاذا لـم يخبـره بكـل تلـك المعلومات التي علمها من العامة بعد الحادث ، أفاده الأب بسؤال :هل لديك كل المعلومات عن أهالي القرية؟ تردد الفتى قليلا ونفى هذا ولكنه أستدرك بأن جميع أهالي القرية مسلمون ولا يتاجرون ولا يتعاملون بالربا. ابتسم والده وأخبر أبنه بقوله .ابني: : كل إنسان به غابة كثيفة من الأسرار ونحن جميعا مصريون لا فرق بين أسم وآخر وديانه وأخرى ومهنة وغيرها .. كلنا مصريون.

انتهت إجراءات التحقيق وتم حفظ القضية لوفاة المتهم لكن الفتى طارق أصبح ذو شهرة واسعة فى محيط أهل عزبة كتكت بأنه فتى شجاع ودافع عن ابنة المرابي ناحوم بكل قوة دون خشية أن يقتله "زناتي" الذي أدار ماكينة الطحين لقتله.

تسببت ماكينة الطحين التى أدارها "زناتي" قبل مقتله بثوان بأن دفعت بقوة الحجر الصوان الذي يقوم بطحن الغلال خارج الماكينة لأنه لم يكن مثبتا حيث كان "زناتي" قد فكه ليقوم بصيانته والتي كانت عبارة عن تخشين الحجر ليقوي علي طحن الغلال وقد أدى اندفاع الحجر من مكانه الى تحطيم جدار الماكينة.

اعتكفت "سارة" فى منزل عائلتها تقدم الشكر إلي ربها بأن أنقذها من اعتداء هذا الإنسان الهمجي كما غمرها شعور بالفرحة بأن صديقها "طارق " ضحى بنفسه من أجلها وقد أعاد هذا الى ذاكرتها القصص الجميلة التى قرأت عنها مثل الشاطر حسن وست الحسن والجمال وما كان يفعله من أجلها .. تأكد

لها أن طارق يشعر بشيء ما نحوها ولكنه لا يستطيع التعبير عما يدور بمكنونه ولهذا فإنها سوف تحاول مساعدته من أجل أن يتقارب الاثنان ويظهر كل منهما للآخر مدى تعلقه بصديقه .. أما "بشرى" فقد شعرت بفرحة غامرة لنجاة صديقتها "سارة" وانتقام "طارق" من زناتي لما قام به ضدها وضد صديقتها .. أيقن الجميع بأن طارق إنسان شجاع رغم أن عمره لم يتجاوز الثانية عشر.

جلست كلٌ من "سارة وبشرى" بمفردهما وسؤال واحد يتردد على الألسنة. لماذا فعل هذا العامل فعلته هذه ؟ لابد أن شيئا دفعه الى هذا .. نظرت "بشرى" الى سارة وطلبت منها رفع ملابسها الخارجية قليلا .. فعلت الفتاة وهنا صاحت "بشرى" قائلة: سارة لابد أن تنتبهي بأنكِ أصبحت عروساً جميلة ومن أجل هذا يجب أن تتحفظي فى تحركاتك حتى لا تثيري الرجال بعد اليوم ومن الممكن لحظتها ألا تجدي صبياً يدافع عنك مثل "طارق".

وافقت "سارة" على رأى صديقتها "بشرى" متسائلة: أعتقد أن حالتك مثل حالتى .. أجابتها بتأكيد هذا لكن طفرة نمو جسدك ساعدت على جذب نظرات الآخرين إليك وطمعهم فيكِ ، تساءلت "سارة" وما موقف "طارق" من هذا؟ ألا يصبح مثل باقي الرجال والشباب الذين ينظرون إلينا نظرات بهيمية؟

نعم صديقتي. سوف يحدث هذا ولكنه مازال صغيرا وبعد عدة أعوام سوف يُصبح مثل الآخرين وعلى رأى المثل "خافي من الذُكير حتي لو كان صغير" ضحكت بعدها الفتاتان وأعادتا توضيح بعض الأمور بأن وضع "طارق"

مخالف للآخرين ولا أعتقد أنه فى يوم من الأيام سوف يهاجم إحدانا لأنه تربى بيتنا.

انتابت "طارق" حالة من التوتر النفسي والعصبي لما شاهده وعاصره في هذا الحادث مما جعله يفزع من نومه صارخا باحثا عن "سارة" وقد ألم بأسرته ضيق شديد لتلك الحالة ولهذا عرضه والده على الشيخ "قرني" العراف بالبلدة والذى أفادهم بأنه لابد من ان تنام ابنة ناحوم قريبا منه لعدة ليال حتى إذا فزع شاهدها بجواره كما أنه قبل نومه سوف يشاهدها .. أفضت إحدى العمات بهذا النصح لأم سارة السيدة "ألين" وقد حزنت كثيرا لهذا ورحبت هى وزوجها بتلك النصيحة.

أصبحت "سارة" تنام على كنبه بلدي وطارق على الكنبة الأخرى المواجهة بنفس الحجرة بمنزل الجدة ويظل الطفلين يتحدثان ويضحكان حتى يغافلهما النوم .. استيقظ طارق ليلا للتوجه للحمام لقضاء حاجته ولكنه شاهد "سارة" على ضوء اللمبة الجاز وقد تعري الكثير من جسدها أثناء النوم والحركة .. عاوده نفس المنظر الذي شاهده يوم الحادث المشئوم وما حدث له ولصديقتيه. أيقظها:

- سارة .. سارة .. تنبهت فنهضت .. متسائلة:

- مالك يا طارق .. أنت خايف؟

- أبدا .. انا عايزك تغطى نفسك علشان لما بأشوفك بأفتكر الحادثة .. ربتت على خديه طالبة منه العودة لنومه وعليه أن يحلم مع الملائكة الصغار أمثاله.

لقد جافاه النوم وأصبح كلما نظر الى "سارة" توتر ولم يعرف كيف يتصرف حيال الأمر ، شعر بأن ما شاهده شيء جميل لكن مازال الخوف من الماضي يراوده وقد تساءل: ماذا كان يبغى المرحوم "زناتي" مما فعله بصديقته؟

اليوم التالي توجه بسؤاله الى فروح أبن عمه والذى إبتسم لسذاجته وقد أجابه على سؤاله بالتفصيل وبالتوضيح و"طارق" مندهش لما يسمعه طالبا منه غلق فمه ولكن أبن العم مازال يبث السموم فى أذن طارق .. تركه وهو فى أشد حالات الضيق ولكن أثناء الليل شاهد ما أوضحه له ابن عمه بحديثه البذيء الفاضح والذى قلب كيانه وحاله.

في الليلة التالية أتجه الى "سارة" ليوقظها .. يناديها:

- سارة .. نهضت من نومها متسائلة لماذا لا تنام وتجعلني أنام انا الأخرى .. بثها كل ما أخبره به أبن عمه من معلومات بنفس الألفاظ والتعبيرات وكأنها اسطوانة أفرغت ما فيها من بيانات ُدهشت صديقته لأن ما قاله يزيد عما تعلمه هى من تلك الأمور .. هدهدت على كتفيه طالبة منه ألا يستمع لمثل تلك الأقوال لأنها سيئة وتهلك من يقولها بل ويصبح مثل " زناتي المجرم".

أخيراً توصل الفتى للحقيقة .. أن ما قاله له أبن العم وما شاهده على صديقته من اكتشاف لجسدها ليلا سوف يوصله الى مرحلة "زناتي" .. أنكمش فى نومه فوق الكنبة وكلما رغب فى التوجه لقضاء حاجته تخوف أن يشاهد "سارة" على وضعها هذا ويتصرف بما قاله له أبن عمه ويصبح مثل "زناتي" الذي أصبح المثل السيئ فى عزبة كتكت.

فى صباح اليوم التالي شكرها طالبا منها العودة إلي بيتها فلقد أصبح أحسن حالا .. نظرت إليه باشة الوجه وهى تداعبه مثل ما يداعب إنسان كلبا صغيرا أو قطة لديه .. شعر انها تسخر منه وتعتقد أنه مازال طفلا ولا يرغب فى الفتيات القريبات من عمره لكنه تضاحك مما بثه ابن عمه فى رأسه وأحس بأنها معلومات سيئة أفسدت عليه عقله.

عاد طارق الى حالته الطبيعية وواصل اللعب مع الفتاتين وقد زادت الأمهات من عامل الثقة به بل أصبح "ديك البرابر" لهن وهكذا زادت اللقاءات والخلوات بل أن الأطفال الثلاث اتجهوا للسباحة فى أرض الخواجة ناحوم يوم السبت حيث لا عمل فى الأرض .. فوجئ "طارق" بأن صديقتيه اللتين لم يشاهدهن أثناء السباحة منذ عامين مضيا بأن أجسادهما أصبحت مخالفة لما رآه سابقا .. أيقن أن الكثير مما قاله أبن العم حقيقي حيث بدأ يدقق النظر إليهما وكان يشعر بمتعة حين تقترب منه إحداهما أو تلاعبه أي واحدة.

أيقن أنه سوف يصبح "زناتي" آخر وأيقن بأن "زناتي "هذا ليس مسئولا بمفرده عما حدث ولكن ما شاهده من جسد صديقته دفعه الى هذا .. زاد من تعمقه وتفكيره على ما كان يشاهده ويراه بل وببعض ما تتحدث به الفتاتان وشعر بأنهما تحركان بعضا من مشاعره ولهذا قرر الابتعاد عن هذا التأثير الذي لا يعرف سببه الحقيقي لكنه علم نتيجته النهائية وهى أنه سوف يصبح "زناتي" آخر وقد قالتها له صديقته التى تسببت فى المأساة.

****

انتهت الأجازة الصيفية وعاد الفتى الى "قرية السبع" مع عائلته وفى بداية العام الدراسي والتقي بزملاء الدراسة .. كانت المدرسة الأولى مشتركة مثل باقي المدارس فى تلك الأيام بل كان يسمع أن بعض التلميذات تركن الدراسة بسبب الزواج وُدهش لهذا وكيف لطفلة كبيرة فى مثل عمره تصبح زوجة وأما ولكن كل شيء كان مسموح به وجائز كما يقول بعض العامة من الناس فى القرية.

"هنادي" زميلته والتى كانت تجلس بجواره منذ أربعة أعوام وهى فى نفس عمر صديقتيه ببلدة جدته "عزبة كتكت" كما أنها مثلهن فى الملبس وتضاريس الجسد بل والصوت وبعض الإيماءات والإشارات التى تقوم بها البنات .. نظر إليها راغبا فى أن ُيحدث مقارنه بينها وبين صديقته "سارة" ولكن "هنادى" كانت تغطى جسدها مثل باقي الفتيات .. فى إحدى المرات وأثناء لهوهم سويا وهما بمفردهما أقترب منها وهو مضطرب وسألها.

- هنادى .. ممكن ترفعي فستانك لفوق شويه؟

نظرت إليه الفتاة وصبغ وجهها باللون الأحمر سواء للخجل أو للضيق وسمع شهيقها وزفيرها ولم تجبه. أعتقد أنها خجلي فأعاد عليها رغبته محاولا مساعدتها ولكنها صفعته على وجهه صفعة قوية شعر بعدها أن بعض الدموع قفزت من عينيه وتركته مغادرة المكان لاعنة الزمن الذي أفسد الجميع قائلة بصوت واضح:

- "اللى تقول عليه موسى يطلع فرعون".

جلس هامداً متسائلاً: ماذا حدث؟ وشعر بأن كارثة قد حدثت له وقد نالته اهانة كبيرة وعنف نفسه بأن تصرفه هذا هو الذي دفع "هنادى" لأن تتصرف معه بمثل هذا الفعل ، ارتعشت ساقيه وقدميه مما حدث.

****

تعتبر "هنادى وصفى" أجمل فتاة فى البلدة "قرية السبع" كما أنها ابنة وصفى باشا عضو مجلس الأعيان ومن أثرياء المنطقة وهي صغري أبناءه ولها أربعة من الإخوة جميعهم تخرج من الجامعة وعمل بل ان البعض تزوج ولكن "هنادى" جاءت بعد فترة توقف عن الإنجاب تعدت أثنى عشر عاما مما أدخل البهجة والفرحة على قلب والديها وأشقائها بأن أصبحت لهم أختا صغيرة يرعونها ويلاطفونها ورغم هذا فقد كانت تربيتها على أسس سليمة حيث وفر لها والدها سيدة تجيد حفظ القرآن الكريم وتقوم على تعليمها أسس الفقه والسنة وعلوم الدين كما تربت على التواضع وعدم الغطرسة والشعور بالذات فكانت مُحبة ولينة التعامل مع الفقراء رغم ما منحها الله به من الجمال ومن العز والجاه والمال.

عادت "هنادى" الى حجرتها محمومة تهذي .. ماذا ألم بذلك الفتى المهذب الرقيق .. لماذا تصرف معي هذا التصرف ولم يفعله مع أحد غيري؟ هل هذا بسبب تباسطي وتعاملي معه على نفس المستوى .. إلا يعلم هذا الغبي أن أبى يملك مالا وجاها وعزاً يستطيع أن يضع أباه بل وأسرته بالسجن .. لا أعتقد اننى أخطأت ولكن هناك شيئاً مريباً فيما حدث من تصرفه الغير معقول ..

أنبت نفسها وأحست بأنها اندفعت حين صفعته على وجهه وقد سمعت معلمتها تقول بأن الله كرم وجه الإنسان وما كان لها أن تفعل ذلك.

قررت بداخلها أنها سوف تقدم له اعتذارها في صباح الغد بالمدرسة ، في اليوم التالي تغيب "طارق" ولم يحضر للدراسة ، توترت قليلا وقررت أن تعتذر له فى اليوم التالي .. لم يحضر اليوم التالي أيضا .. توجهت وقابلت إسماعيل أفندي والده والمدرس بنفس المدرسة .. سألته عن أحوال "طارق" الذي تغيب يومين ، ظهر الضيق على وجه الأب وأخبرها بأن "طارق" مريض بشيء غامض لكنه كأب يشعر بأن أحداً أهان ابنه ، طفرت بعض الدموع من عينيها الجميلتين ، هدأ الرجل من روعها وأنه فى كل صلاة يدعو الله بالانتقام من المتسبب فيما ألم بابنه.

اللــه أكبر فوق كيد المعتدى

أصبح طارق أشد عوداً وأكثر علما بأمور الفتيات والنساء بعد ما صبه أبن عمه فى رأسه من معلومات دفعته الى البحث والتدقيق فيما سمعه بل أصبح يسأل صديقيه فى المدرسة عادل أبن المقدس حلمي قلادة ويسرى أبن رشيد بك أبو الدهب عن تلك المعلومات وتبين له أنهما مثله لا يعلمان عن تلك الأمور اى شيء بل إنهما امتعضا بأن يتحدث بمثل هذا القول .. كان كلٌ من عادل قلادة ويسرى أبو الدهب قد حصلا على أعلي مستوى من حُسن التربية والفضيلة والدين فلقد كانت "فيوليت هانم" والدة عادل لا تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وأرشدت أبنائها إليها بقدر عال من الهدوء والإقناع كما أن "معالي هانم أبو ألوفا" والدة يسرى أبو الدهب هى الأخرى من أكابر الطبقة الراقية فى مجتمع تلك القرية بل كانت عضوه بإحدى جمعيات تحسين الصحة بالقاهرة.

أجتنب كلٌ من يسرى وعادل زميلهما "طارق" لما سمعاه منه .. شعر طارق بهذا الابتعاد الذي أضيف الى ما حدث منذ عدة أيام من صديقته "هنادى" فشعر بأنه هبط الى منحدر سيء ، أوكل كل ما جري له بسبب سوء حديث أبن عمه الأرعن الذي صب الكثير من الكلام السيئ فى أذنه فأفسد عليه تفكيره وشعر أن أمه كانت مُحقه بأن تبعده عن مرافقته بل وسارة أيضا التي طلبت منه تجاهل ذاك الحديث.

تساءل: ماذا أنا فاعل فيما حدث؟ .. لقد دخلت قصور وفيلات الأصدقاء الثلاثة "هنادى ويسرى وعادل" وكان ترحيب عائلاتهم كبير لي لما لمسوه من ُحسن خلق والدي حيث كان مضرب الأمثال فى دماثة ُخلقه والتي أصبحت المثل والقدوة بتلك القرية حيث كان يؤم المصلين بالمسجد الكبير أثناء الصلاة فى يوم الجمعة والذى يرتاده الكثير من كبار رجال القرية وأثريائها كما أن والدتي تتمتع برقة المشاعر وقد أنعم الله عليها بجمال على أعلي مستوى ولم يؤخذ عليها قول سوء مع السيدات الأخريات ولهذا تصادقت معها البعض من سيدات الأسر الثرية بالبلدة.

شعر طارقاً بأن كل هذا الرصيد سوف ُيزول منه ولماذا؟ بسبب سوء الحديث الذي أتبعه بسوء الفعل ، التزم الحيطة والحذر وقرر بأنه سوف ُيغلق هذا الباب المشين منذ الآن والذي سيجلب عليه مشاكل كثيرة وقد شعر ببدايتها عندما قامت "هنادى" بصفعه حيث كان هذا شيئا سيئا للغاية فمنذ أربع سنوات عندما عرفها وهى تجلس بجواره فى الفصل الدراسي ورفضت كل عروض بعض البنات بالجلوس بجوارهن وفضلته عليهن كما أنها كانت تحضر له بعض الحلوى وتلاعبه وتضاحكه .. لقد أخطأ ولن يعود لفحش الحديث ثانية.

فى صباح اليوم الثالث لبدأ مشاكل "طارق" مع أصدقائه "هنادى ويسرى وعادل" عاد الى مدرسته منشرح الصدر مقبلاً غير ُمدبر فقد علم خطأ ما اقترفه وقرر إصلاحه بهدوء .. أقبلت عليه هنادى باسمة سعيدة فرحة به .. ألقت عليها تحيتها الباسمة الرقيقة:

ـ صباح الخير يا طارق

ـ صباح الخير يا هنادى

ـ غبت يومين وسألت عمى إسماعيل وطمني على إنك جاى النهاردة

ـ الحمد لله .. طيب لو مكنتش جيت النهاردة كنت ناويه تزوريني؟

ـ ايوه طبعا .. أنت اخويا الصغير. اتبعتها بابتسامة وأخرجت قطعة عسلية وناولتها له فأخذها منها مثل كل يوم سعيداً باسماً .. سارا سويا الى الفصل الدراسي.

بعد أيام قلائل حضر كلٌ من عادل قلادة ويسرى أبو الدهب وحادثا هنادى بعيداً عن آذان الآخرين ، عرضا عليها ضيقهما من حديث لصديقهما "طارق" والذي شعرا منه بأنه بعيد عن الذوق والأدب ، حذراها منه ، أجابتهما بكل هدوء: أصدقائي وزملائي ، ما تحدث به "طارق" إليكما ليس من أخلاقه او سلوكياته ولكنه دخيل عليه وأعتقد بأن شخصا ما بعيد عن سلوكنا وسلوكه هو الذي دفعه الى هذا التصرف وبتلك الطريقة الغير معتادة فأنتما تعلمان أن عمى إسماعيل والده يؤم المصلين بالمسجد الكبير ويصلى خلفه آباؤنا جميعا كما يلجأ إليه أصحاب المشاكل وأن "طارق " يحفظ بعضاً من أجزاء القرآن كما أنه متفوق فى دراسته .. أرجو منكما أن تمنحاه الفرصة لنتأكد مما قاله هل هو ُخلق جديد أو أنه شيء عارض؟

صمت الصديقان وبإشارة منهما أيدا صديقتهما وتحدث أحدهما قائلاً: سوف تظهر لنا الأيام القادمة فى أي طريق يسير .. تركاها وهى حزينة بأن

يتقول البعض على صديقها ولكنه كان السبب فيما قاله البعض لأنها اختبرت تلك التجربة ولم تبح لهما بما قال حتى لا تزيد الأمور تعقيدا.

شعر الأصدقاء بعد ُمضى أسابيع قليلة ُبخلق "طارق" القويم الذي تعودوه منه ولهذا عادت صداقتهما ثانية وأصبح الذي جري ذكرى وسحابة صيف .. لكن طارقا مازال يعانى من أثر ما شاهده وسمعه من صراخ صديقتيه ومشهد "سارة" والجزء السفلي من جسدها عاريا واضحا أمامه وهى تصرخ من محاولة زناتي التعدي عليها.

أصبحت تلك الذكرى تسبب له أرقا وتوترا طالما حاول التخلص منها لكن معاودة الاستحمام فى القناة الممتدة بأرض الخواجة "ناحوم" كانت تجدد تلك الآلام خاصة أن الفتاتين قد تبدلت وتغيرت أجسادهن وأصبحتا أكبر منه طولا وحجما وتتصرفان بدلال مع بعضهما .. راقبهما وتنازعه قوتان متضادتان أحداهما الرغبة فى المشاهدة والمتعة لما حدث من تبدل عليهن والأخرى الخوف بأن يصبح مثل "زناتي" النجس وما سمعه من تعليقات أهل عزبة كتكت عليه ومشاهدة أشلاء جسده فى الطاحونة.

قرر بأن أفضل شيء لعلاج ما حدث وما هاجمه هو الابتعاد عن اللعب معهن وبتلك الملابس حتى لا يشاهدهما .. أمتنع عن مصاحبتهما ولقد ضايقهما هذا التصرف لأنهما كانتا تشعران بالأمان والحماية لتواجده معهما .. لكنه ظل على قراره فقد شعر بعدها أنه تخلص من هاجس كبير وحين كان ينظر الى صديقتيه "سارة وبشرى" يشعر بأن "هنادى" معهما أيضا وأضحت البنات

الثلاث في ميزان واحد رغم أن كلا من "سارة وبشرى" يحادثانه بدلال أكثر من هنادى.

هذا هو العام الرابع بالمدرسة وسوف يُعقد امتحان القبول بالتعليم الإعدادي حديث العهد بينما أنهي "فروح" ابن عمه تعليمه هذا العام وسوف يتسلم عمله كاتباً بالجمعية الزراعية بقرية جدته وأمه الآن مشغولة بزواجه من ابنة أختها فتحية والتى قص عليه "فروح" الكثير من فتنتها وجمالها رغم أن طارقا يعلم أنها فتاة عادية ولا تملك من أمور الجمال شيئا سوى براعتها فى أعمال الحقل والزراعة ومساعدة أمها فى جمع روث البهائم بل شاهدها وهى تتقن إعداد أقراص "الجلة" وتنثرها أمام منزلها تحت أشعة الشمس وكان طارقا يشعر بتأفف لهذا الأمر مما دفعه إلي عدم مصافحتها بيده.

انتهى الامتحان وتجمع الأصدقاء فى سرايا وصفى باشا والد هنادى يتحدثون عن المستقبل فى حالة نجاحهم .. كانوا جميعا مؤيدين لاستكمال تعليمهم ولهذا قرروا الالتحاق بالمدرسة الاعدادى بالمركز وهى الوحيدة ولا تبعد عن قريتهم بأكثر من عشر دقائق بقطار الدلتا "سوارس" الذي يُمر بقرية السبع أو خمسة عشرة دقيقة بالكاريتا.

ظهرت نتيجة الالتحاق بالتعليم الإعدادي حديث العهد وقبلوا جميعا وأسعدهم هذا وبعدها بأسبوع أتجه "طارق" برفقة الأسرة الى عزبة كتكت وقد أزداد عدد أفرادهم فردا جديدا بميلاد شقيقه "أحمد" والذى قارب العام منذ مولده بينما شقيقتيه "عائشة وفاطمة " تدرسان بنفس المدرسة التى كان يدرس بها .

وصلت الأسرة الى قرية الجدة وهناك تركهم "طارق" متجها الى منزل صديقتيه "سارة وبشرى" وبمجرد ان ولج الشارع الذي يقع فيه منزلهما حتي شاهد الفرحة والابتسامة على وجهيهما قبل المصافحة فقد نجحت الفتاتان وهذا أسعده كثيرا .. احتفلوا سويا بهذا الإنجاز وأخبرتاه بأنه بعد غد السبت سوف يقضيانه معا في استراحة عم "ناحوم" ويتمتعون بالمياه وهما تتغامزان وتتضاحكن أمامه.

ظل مساء الخميس وطوال يوم الجمعة يفكر في التملص من تلك الدعوة وقرر عدم مصاحبتهما وبعد قليل عدل عن قراره السابق ، في الموعد المحدد شعر بأن أقدامه تقوده الى مكانهم المعهود .. شاهد "سارة" التي استبقت "بشرى" وبمجرد حضوره تحللت الفتاة من بعض الملابس وشعر أنه يجاري ما تقوم به وهي تنظر إليه من حين لآخر نظرات لم يشاهدها عليها من قبل .. أقبلت عليهما "بشرى" فصرخت بسعادة فأسرعت تحذو حذوهما. نزل الثلاثة الى المياه يلهون سعداء وقد شعر الفتى بأن جسده توتر بشدة للأنوثة الطاغية التي كانت عليها أجسادهما ومن تعمد إحداهما بأن تميل على أحد الأجناب فتحتك بجسده.

شاهد "زناتي" أمامه صارخا فيه بدون صوت .. (يا نجس بـ تعمل زيّ .. طيب أنا ح أروح أجيب الماسورة وأضربك على رأسك زي ما عملت معايا) .. شعر بأن روحه تسحب من صدره وشعر بأن حالة من الإغماء سوف تهاجمه ولم يشعر بعدها إلا والفتاتان تحاولان إفاقته بعد أن أخرجتاه من الجدول.

أفاق فشاهدهما بهذا المنظر .. أغمض عينيه طالبا منهما تركه أو ارتداء الملابس ، ضحكتا من حديثه ولكنه ذكر أمامهما أسم "زناتي" فاضطربتا وهرعتا الى داخل الحجرة وأسرعن بارتداء ملابسهن على عجل .. جلس الثلاثة تحت أشعة الشمس ليجففوا شعورهم المبتلة والفتاتان تنظران إليه بدهشة ، نهض وتركهما عائدا الى منزل جدته .. مضت الأجازة به سعيدا بالجلوس معهن فى دار الخواجة "تاناس" وكانت الخالة "مارى" تعد لهم الحلوى حيث كان معروفا عنها حُسن استقبال زوارها مهما كان العدد ومهما كان عمر الزائر وكان مشهودا لها بكرم الضيافة.

فى إحدى الليالي احتدمت المناقشة بين الأب "ناحوم" وزوجته "ألين" بخصوص إستكمال "سارة" لتعليمها .. فقد كان من رأى الأب أن هذا يكفى ولكن زوجته رأت أن أبنتها نجحت بتفوق وانه يجب عليهما إستكمال تعليمها فى المدرسة الاعدادى الموجودة بالمركز أسوة بصديقتها "بشرى" وكان السبب الرئيسي لمعارضه "ناحوم" طول المسافة واحتمال أن يؤدى هذا الى تكلفة مادية مرتفعة كما أنه يخشى على أبنته من تعدى أحد الشباب عليها لما أسبغه الله عليها من فتنة وجمال.

اقترحت عليه زوجته الاسترشاد برأي "إسماعيل افندى شحاتة" فهو "خوجه" اى مدرس معروف ويعمل بمدرسة وله أبن سيلحقه بنفس المدرسة .. أرسلوا فى طلبه ، في المساء أقبل عليهم وجلس مع الوالدين كما حضر كلٌ من الخواجة "تاناس" وزوجته "مارى" وقد عرض عليهم "ناحوم" أن ينتقلوا

جميعا للجلوس فى منزل الخواجة "تاناس" لأنه مكان فسيح وقد ابتسم الجميع لهذا الاقتراح لأنهم يعلموا السبب فى ذلك.

تبادل الآباء والأمهات الرأي فى المشكلة التى تواجه كلٌ من الفتاتين "سارة وبشرى" حيث ان طول المسافة وصعوبة المواصلات خاصة فى موسم الشتاء والأوحال سوف تُعرقل ذهاب وعودة الفتاتين بأمان .. عرض عليهم "إسماعيل افندى" أن يستضيف الفتاتين فترة الدراسة بمنزله حيث ان القرية التى يعمل بها قريبة من المدرسة وأن العديد من الطلاب والطالبات يتجهون إليها مستخدمين قطار "سوارس" المأمون فى المواصلات والتى لا تعيقه الأمطار والأوحال والذي يمر بالبلدة .. شعر "ناحوم" بأن مشكلة كبيرة قدُحلت وقدمت له الأسرتان شكرهما على دعوته تلك.

اسعد هذا الخبر "سارة وبشري" لأنهن سوف يستكملن تعليمهن وسوف يقمن بقرية السبع ذات المستوى الاجتماعي الراقي والمنفرد بالمنطقة ومن بينها عزبتهم الصغيرة كما أنهما تشعران بحب كبير جهة "نفيسة هانم" زوجة "إسماعيل افندى" وسوف تصبحان بصحبة الصديق "طارق".

أسعد هذا كل الأطراف بإستثناء "طارق" الذي شعر بأن كارثة سوف تحدق به وانه سوف يشاهد "زناتي" أمامه يوميا .. لم يكن يخشى "بشرى" لأنها كانت متزنة كما أنها لم تكن تتمتع بمواصفات جسدية جميلة مثل "سارة" ، حاول إثناء والديه عن هذا الأمر ولكنه فشل تحت شعار الحب والتعاون الكامن بين

أهل القرية وقد أوضحت له أمه بأنه يمكن أن يقيم بالحجرة الكائنة بأعلى المنزل وأن يهبط أثناء تناول الطعام.

شعر براحة لهذا الاقتراح فلم يجد أمامه سواه ، هكذا سوف تصبح الفتاتين أمامه فى منزله لمدة أربع سنوات (كانت المرحلة الإعدادية فى تلك الفترة أربعة أعوام) ثم إذا رغبن فى إستكمال تعليمهن فسوف يستمر ثلاثة أعوام أخرى لأن اقرب مدرسة ثانوي تقع بنفس المدينة القريبة من منزلهم وهذا يعنى بأنه سوف يشاهدهما لمدة سبع سنوات متواصلة حتى أثناء الأجازة الصيفية والتى تقضيها الأسرة بقرية جدته .. شعر بأن هذا عبء نفسي كبير عليه ولكنه أسترجع مقدرته وهمته وأنه يجب عليه أن يُصبح رجلا قويا مثل ما تصرف بحكمة مع كلٍّ من هنادى وصديقيه بل وقطع كل صلته بابن عمه وعليه القيام بنفس التصرف.

أعدت له أمه الحجرة التى بأعلى المنزل ليقيم بها بينما حجرته أصبحت مخصصة للفتاتين .. شعرت "نفيسة هانم" بسعادة غامرة بأن أصبح لديها عروستين تغادران منزلها كل خميس وتعودان مساء الجمعة بصحبة "إسماعيل افندى" الذي كان يرافقهن وهو متجه لزيارة أمه وشقيقاته كل أسبوع مثلما تعود وفى بعض الحالات يقوم "طارق" مقامه.

شعر طارق بأن الأمور تسير بسهولة وأنه قد ضخم وجود صديقتيه فى منزله وانه سوف يهاجمه حادث مصرع "زناتي" من حين لآخر وقد حدث له تبديل فى مشاعره حيث بدأ يهتم بصديقته "هنادى" والتى بدأت تشعر بميل

عاطفي نحوه وقد لاحظت هذا صديقتاه "سارة وبشرى" وهما اللتان أخبرتاه بهذا فى البداية ولم يصدق ما قالته صديقتاه لصغر عمر هنادى ولعلمه بمدى جديتها والتزامها.

انتهت المرحلة الإعدادية والتى استمرت أربعة أعوام بنجاحهم جميعا سواء الفتاتين او صديقيه "عادل ويسرى" أو هنادى وانتقلوا جميعا الى المدرسة الثانوي بنفس المدينة والتى كانت مقسمة على فترتين واحدة للبنات والأخرى للأولاد.

بداية العام الدراسي حدث شيء غريب فى مصر فقد تطورت الأحداث سريعا بعد أن أمم رئيس الجمهورية قناة السويس أثناء فترة الأجازة المدرسية .. جرت الأحداث بسرعة والأيام تطوى الأيام ثم حدث العدوان الثلاثي على مصر من إسرائيل وتبعتها كلّ من إنجلترا وفرنسا وخرجت جموع الشعب تطالب بالحرب ضد الأعداء وظهرت الأناشيد التى تنادى بذلك:

ـ الله أكبر فوق كيد المعتدى

ـ دع سمائي فسمائي محرقه   دع قناتي فمياهي مغرقة

واحذر الأرض فأرضي صاعقة

ـ اسلمى يا مصر إنني الفدا   زى يدى أن مدت الدنيا يدا

كما توجه الرئيس جمال عبدالناصر الى الجامع الأزهر ووجه خطابا الى جموع الشعب يدعوهم فيه الى القتال ومحاربة المعتدين كما هاجر العديد من الأسر من مدن القناة الى داخل البلاد وتطوع الكثير من الشباب فى الحرس الوطني وتم

توزيع السلاح على جموع الشعب ومن بينهم "طارق ويسرى أبو الدهب وعادل قلادة" خاصة أن منطقة كفر الشيخ لها سواحل على البحر الأبيض وتقع على نفس خط "بورسعيد" ولكنها تبعد غربا في اتجاه رشيد.

بعد أسبوعين من بداية الحرب العنيفة خمدت نيرانها وأستعد المعتدون للجلاء عن بورسعيد وسيناء بعد ان توالت على المعتدين الهزائم من المقاومة الباسلة سواء من الجيش او الشعب فلقد كانت ملحمة مصرية واضحة المعالم وبكل ما لاقوه من وسائل التحقير والتوبيخ من العالم عليهم لتعديهم على دولة كل ما فعلته أنها حاولت استرداد حقها ولم تهاجم اى دولة من تلك الدول وأصدرت الأمم المتحدة قرارا بانسحابهم من بورسعيد وسيناء بعد أن هدد الإتحاد السوفيتي بضربهم بالقنابل الذرية وكاد العالم يقابل حربا نووية لأول مرة.

أنتصر المصريون وعمت الفرحة الشعب واستأنفت الدراسة وودع السلاح والتأم شمل الأصدقاء بالمدرسة ومازالت "هنادى" ترسل بإشارات خفية الى "طارق" وهو مشغول عنها بالدراسة وبصديقتيه اللتين ملأتا عليه حياته ومازالوا يتبادلون ثقافة الديانات الثلاث دون قصد لكن بغرض حُب المعرفة الذي يلازم الصغار وأصبح من المألوف أن تنبه إحداهما "طارقا" الى موعد الصلاة كما كانت تقدمان يد المساعدة للخالة "نفيسة" فى إعداد كعك العيد وأصبح مألوفا أن ترسل والدة طارق كميات من كعك العيد الى أسرتي بشري

وسارة بالبلدة بل كانت ام طارق تعد طعاماً خاصاً لتتناوله بشرى أثناء فترة صيامها.

تطورت الأمور بأن أصبحت الفتاتان تصعدان للمذاكرة بحجرة "طارق" بعيداً عن الصغار الذين لا يكفون عن المشاجرة والبكاء ، أقترب الثلاثة من بعضهم البعض أكثر وبدأت الفتيات يخبرنه ببعض أخبار المغازلة التى يتعرضن لها وكان هذا فى إطار الفكاهة وعدم الانفعال لأنه شيء طبيعي بين الشباب ثم أن الغزل لم يؤت ثمارا ولم يصل الى شيء ما .. فلن يتم الزواج لفتاه مسيحية والأخرى يهودية من مسلم.

نجحت المجموعة فى ذلك العام وأصبحوا من أوائل المدرسة خاصة "سارة وعادل قلادة" أما الباقين فكانوا فى أعقابهم من حيث الترتيب .. فى فترة الأجازة الصيفية أقام طارق بمنزل "بشرى" طوال اليوم بالإضافة الى وجود سارة وكانت الأسرتان راغبتين فى رد الجميل لعائلة "إسماعيل افندى" حيث رفض الحصول على اى مبالغ منهن نظير الإقامة أو الإعاشة رغم أن "ناحوم" أخبره بأنه يمكنه الحصول على مقابل لما يقدمه لإبنته بأن تعمل "سارة" بمد يد المساعدة لزوجته فى أعمال المنزل مما دفع كلٌ من الخواجة "تاناس وإسماعيل افندى للضحك" لما يفعله ويتبعه ناحوم اليهودي الذي لم يتخلي أبدا عن يهوديته.

استفاد "طارق" استفادة كبري من علاقته بالفتاتين ، كانت أول استفادة أنه علم الكثير عن الديانتين المسيحية واليهودية وكان يحدث أصدقائه بأنه كان

يشعر بان الديانات الثلاث كأنها ثلاث قطع قماش من نسيج واحد ومساحة واحدة وكل قطعة لها لون مخالف لكن أصلهم واحد.

استفادت الفتاتان أيضا من "طارق" فى التبحر فى الديانة الإسلامية حيث تعود منذ نعومة أظفاره على الصلاة وحفظ القرآن وترتيله وكانتا تشاهدانه فكان هذا مثار إعجاب صديقتيه اللتين كانتا تنصتان له أثناء التلاوة وإذا شاهد خلاعة وعدم هدوء من "سارة" أسرع بمغادر الحجرة جالسا أمامها على السطح ليستكمل تلاوته مما يدفع "بشرى" الى نهرها لما تفعله.

أصبح المنزل شعلة من الاهتمام المتبادل بين الثلاث ديانات وكانت الفتاتان تنبهان نفيسة هانم الى ما يخص معتقداتهم الدينية والسيدة تقوم بتلبية أي مطلب لهما وأصبح هذا من سمات الحياة اليومية بل أنه فى بعض الأحيان تطالب أم طارق زوجها بإحضار نوع معين من الفاكهة تلبية لرغبة الفتيات.

تواصل الحياة سيرها وجاء أحد الأيام علم فيه الأولاد أنه في ذلك اليوم تم إعلان الوحدة بين مصر وسوريا وكان الأصدقاء الثلاثة يدرسون بالسنة الثانية ثانوي ، بعدها بعام ونصف العام اى فى عام ١٩٦٠ نجحوا جميعا فى امتحان الثانوية العامة وكانت النتيجة باهرة خاصة للفتاتين "سارة" التى كان ترتيبها الأول على المدرسة و"بشرى" التى تلتها فى الترتيب وقد حصلتا على مجموع مرتفع للغاية كما كان مجموع "طارق" مرتفعاً أيضا لكنه أقل من صديقتيه.

قرر والد "هنادى" إلا تكمل تعليمها اكتفاء بالشهادة الثانوية فقد كان يخشى عليها من الاختلاط بداخل الجامعة خاصة من حالة التحرر التى صاحبت

الأزياء وبعض أغاني الحب والغرام لبعض المطربين والمطربات .. أما عادل قلادة ويسرى أبو الدهب فقد حققا نجاحا كبيرا لكن بمجموع أقل من باقي الأصدقاء رغم أن دراستهم أدبية وليست بالقسم العلمي مثل باقي الأصدقاء.

ظهرت نتيجة مكتب التنسيق القبول بالجامعات وُقبلت أوراق سارة بطب القاهرة وبشرى بصيدلة عين شمس وطارق بعلوم القاهرة .. أما عادل فقد ألحقه والده بجامعة لوزان بسويسرا لدراسة القانون ويسرى ألحقه والده رشيد بك أبو الدهب بجامعة دبلن بأيرلندا لدراسة الاقتصاد .. هكذا انفكتُ عرى الصداقة بين الأصدقاء الست أما هنادى فقد قبعت فى قصر والدها ولم تكمل تعليمها.

هَجـــرتك

أنهمك الشباب فى حياتهم الجديدة .. أصبحت سارة بكلية عملية تحتاج منها الكثير من الجد والكفاح وفى اعرق جامعة وهى القاهرة كما أن بشرى هى الأخرى تدرس بجامعة عين شمس وكان معروفا عن تلك الجامعة صعوبة الدراسة بها لتطويرها المستمر لنظم التعليم بها أما طارق فكان يدرس بكلية العلوم أو كلية العلماء كما كان يطلق عليها لأنها الكلية التى ُتخرج الباحثين. كما غادر مصر كلّ من "عادل قلادة ويسرى أبو الدهب" للخارج بينما غمرت السعادة هنادى بالسكون بقصر والدها الباشا وقد تطورت الأمور بين الشباب وخاصة بين كلّ من"عادل وبشرى" و "هنادى وطارق".

*****

بعد انتهاء حرب عام ٥٦ بدأ المصريون يشعرون بعدم راحة وقبول لإقامة اليهود المصريين بينهم والذين لم يكن لهم اى باع فيما حدث فهم مواطنون مصريون لكن السياسة وألاعيبها فرقت بين أبناء الشعب الواحد ومما زاد من توتر تلك العلاقة المضطربة بعض العمليات الإرهابية التي كانت إسرائيل الدافع وراءها والتى تمت ببعض الأماكن قبل اندلاع حرب ٥٦ بإحداث بعض التفجيرات والتى قابلتها السلطات وقتها بكل شدة ثم ظهور إسرائيل فى العدوان الثلاثي كمعتد مع آخرين بغرض القضاء على مصر.

تدخل رجال الدين المسلمين للحض على الجهاد ومقاومة اليهود وبالطبع أصبحت كلمة يهودي تعنى المعادى للوطن بينما لم توجه الخطب والدعاية لمحاربة المعتدين رغم أن من بينهم دولتين كبيرتين تدينان بالديانة المسيحية كانتا ضالعتين في العدوان ولم يتطرق الجهاد الى الديانة هنا ولكنه تطرق الى الديانة فى الجانب اليهودي وقد انكشف المستور من وراء ذلك بأنه من ألاعيب المخابرات الإسرائيلية التى كانت ترغب فى حدوث الفرقة حتى تدفع باليهود المصريين الى ترك بلادهم والهجرة الى الأرض المحتلة لمساندة الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين ولتعمير أرض الميعاد لقد نجحوا فى هذا فى غفلة من السلطات المصرية عن الواقع الخفي من وراء هذا التوتر بين الديانتين وبالتالي فقد أنبرى من اليهود من يحض على مقاومة المصريين الكارهين لهم وأزداد الأمر اشتعالا ولكن ما أربك الأمور وأدي إلي أن تتفاقم بشدة هى القوانين الخاصة بالتأميم أو قوانين يوليو الاشتراكية فى عام ١٩٦١والتى أممت الكثير من ممتلكات المصريين وطالت الجالية اليهودية ولهذا أندفع اليهود للهجرة بعد أن نجحوا فى تهريب أموالهم.

بدا هذا واضحا على "ناحوم" ذلك اليهودي الذي كثرت لقاءاته واجتماعاته الليلية مع بعض اليهود. ورويدا رويداً صفى ممتلكاته وهرب بأمواله وتم هذا أثناء السنة الدراسية الثانية لإبنته بالجامعة.

على المستوى الشخصي لكلّ من "طارق" وسارة فقد جمعت الدراسة بينهما فى كلية العلوم في السنة الأولى أو الإعدادي حيث يتلقى طلبة الطب

الدراسة فى كلية العلوم .. كانت اللقاءات كثيرة فالاثنان يقيمان بالمدينة الجامعية بالقاهرة وأمامهما أوقات فراغ طويلة وهما من بلدة واحدة وأصدقاء منذ نعومة أظفارهما ولم تطلهما سوء السياسة فما زالا صديقين وكل منهما وضع علامة استفهام على الآخر وما سوف ينتج من وراء تلك العلاقة المترامية والنامية بينهما.

كثرت اللقاءات الخارجية والتنزه على شاطئ النيل المجاور لكوبري الجامعة حديث الإنشاء .. كل يوم يشعران بتعلقهما وأصبحت تلك اللقاءات هى المكافأة التى يحصل عليها كل واحد منهما بعد يوم عمل ودراسة ومذاكرة ليلية .. كانت تتم أيضا بعض اللقاءات مع صديقتهم "بشرى" المقيمة بالمدينة الجامعية لجامعة عين شمس والتي تقع فى الإتجاه الآخر قريبا من ميدان العباسية أما هما فمن سكان مدينة الجيزة.

تصارح كل من "طارق وسارة".. ماذا سوف يحدث بعد هذا الحب النامي والعاطفة القوية بينهما هل يمكن الزواج؟ كان باديا فى الأفق بأن الزواج شيء غير منطقي وغير عقلاني حيث كانت الأرض فى مصر قد اهتزت تحت أقدام الجالية اليهودية وبدا أنهم قد اختاروا طريق الهجرة والانضمام للجانب الآخر المعادى وهي إسرائيل واصبحت نهاية وجودهم بمصر مسألة وقت يغادرونها بسبب الحرب الأخيرة التى شنتها إسرائيل على مصر مع عتاة الاستعمار فى العالم "بريطانيا وفرنسا" كما حلت كراهية المصريين ضد إخوتهم المصريين اليهود وبدأ الأمر يأخذ طابعا عاما بدلا من التعاطف والتعاون الذي كان.

كلما عاد "طارق" الى قريته تخبره أمه بأن "هنادى" حضرت لزيارتها وسألت عنه كثيرا وهى ترجوه أن يزورهم فى القصر لأنها مازالت تذكر أيام الدراسة واللهو سويا وهما صغار .. كان "طارق" راغباً فى مشاهدة "هنادى" فهو يقدرها حق قدرها وهي سليلة الباشاوات ومن أصل رفيع وخلق على أعلى مستوى كما انه لم يفكر فى يوم من الأيام أن يتقدم لها حيث ان الفارق بين الأسرتين كان شاسعا ولهذا كانت علاقته بها مثل علاقته بصديقته "بشرى" والتى لم يفكر فى إقامة اى علاقة معها بعكس "سارة" التى بدلت حاله وعبثت بكيانه بل شعر بأن حالها قد انقلب أيضا وكانت ثائرة عليه لأنها لم تكن تتوقع أن يحدث لها هذا ومن هذا الشاب التى كانت تعتقد منذ أمد طويل انه بمثابة شقيقها الأصغر لاختلاف العمر بينهما بما يزيد عن ستة أشهر كما أن اليهود لابد من أن يرتبطوا بمن علي ديانتهم.

توجه "طارق" الى قصر هنادى ومازال فكره مشغول وقلبه يسبقه سعيدا بلقاء صديقة الطفولة التي كانت تقدم له ألحلوي والطعام وهما يتضاحكان ويلهوان سويا ، شاهد معالم القصر الخارجية من مسافة ليست ببعيدة ، ظل يقترب من موقع القصر وكان يشعر بأن أقدامه تحاول أن تسبقه إلي هذا اللقاء العزيز علي نفسه وقلبه ، لم يع لماذا هذا اليوم بالذات الذي شعر فيه بشعور مخالف عن السابق حين قدومه للقصر ، كانت مشاعره وأحاسيسه متضاربة ومترددة وليست في اتجاه واحد ، كانت مشاعر متراقصة مرة بالإيجاب وأخري بالسلب ، لم يستطع أن يحدد له طريقا واتجاه في علاقته بصديقة

الطفولة تلك وما أكثر صداقة الأطفال في المراحل المبكرة من أعمارهم ، شعر أن بوصلة حياته العاطفية غير ثابتة ومهتزة ولن تقوده إلي الطريق الصحيح ، توصل إلي قرار طوعي بأن هنادي مثل سارة وبشري ، هن صديقات وزميلات دراسة ويحمل لهن كل الحب الأخوي والذكريات الجميلة في تلك المرحلة الممتعة من حياتهم جميعا.

شاهد أشجار القصر الباسقة ، كانت أوراق الأشجار لامعة تدل علي نبض الحياة ، استقبلته نسمات عطرة من بعض النباتات بحديقة القصر من أشجار التمرحنه والياسمين والورد البلدي ، غمره الإحساس التام بالراحة والسعادة ، توقف لبرهة وأغمض عينيه فاستقبلت حواسه الروائح الجميلة وسمع حفيف أوراق الأشجار ، أعاد فتح عينيه ومشاهدة تلك اللوحة الجميلة الناطقة المتحركة ، كل حواسه تعاملت مع ما سمع وشاهد حتي أنه اشتم إحساسه باللمس وشعر بأنه يعمل رغم أنه لم يلمس شيئا بل لمس جبهته وأطرافه نسمة ما بعد العصر وهي نسمات رطبة جاءت منعشة بل في بعض الأحيان أصبح مخدرا ولو خلد إلي الهدوء فسوف يغالبه النوم.

علي باب القصر استقبله عم "قرني" الحارس استقبالا يليق به بعد أن أصبح من طلاب الجامعة والتي كانت تعتبر في تلك الفترة شيء عالي القيمة ولا ينال الدراسة بها إلا الأذكياء وأصحاب المراكز الاجتماعية وميسوري الحال ، قدم تحيته بالصوت والكلمة الطيبة وبإشارة من يده رفعها قليلا للترحيب ثم هدد علي صدره بهدوء كأنه يخبره بأنك في قلبي.

علي الباب الداخلي وبعد أن سمعت الخادمة صوت الجرس أقبلت وفتحت له الباب مرحبة بكلمات طيبة وبابتسامة عذبة فهي في نفس عمر "هنادي" وتشعر بخفقات قلب سيدتها فساندتها بتلك الابتسامات التي رأت أن الحبيب يستحقها ، أدخلته حجرة الضيوف وبعد قليل نمي إلي سمعه صوت هنادى ووقع خطواتها التي ازدادت وضوحا كلما اقتربت من الحجرة التي يجلس بها ، فتحت عليه باب الحجرة ونظرت إليه نظرة لم يعتدها من قبل .. كانت الشمس المشرقة ذات صباح يوم ربيعي دون ضباب أو شوائب او ُسحب ، كانت ابتسامتها تسعد اى إنسان حزين مثلما نشاهد ابتسامة رضيع فيجبرك على أن تبتسم دون تكلف ولكنك تبتسم للخالق الذي سوى هذا المخلوق .. لقد كانت ابتسامة "هنادى" من ذلك النوع .. دنا منها وأقبلت عليه .. فرد ذراعيه للأمام موازيا للأرض وهى الأخرى فعلت ذلك .. تقابلا والأيدي متشابكة يتحدثان بالابتسامة وتورد الخدين وخفقان قلبين صغيرين .. ضم كفى يدها الى بعضهما وسيطر عليهما بكف واحدة وبكفه الأخرى لمس خصلة شعرها الناعم السابحة بالهواء قريبا من خدها من أثر تيار هواء ما قبل الغروب القادم من الحديقة .. أخرج زفيرا شديدا حيث كان محتبس الأنفاس وهى الأخرى أخرجت زفيرها لكنه زفير ناعم الصوت مثلها .. تنبهت الى هذا الوضع .. سحبت كفيها من كف يده بنعومة وهدوء واعتدلت فى جلستها بعد ان اتخذت مجلسها علي كرسي يقابل الذي يجلس عليه وهي مازالت ترنو إليه طالبة منه إخبارها عن أحواله منذ سافر الى القاهرة

للدراسة بالجامعة وقد مضى عليه أربعة أشهر بالتمام والكمال لم تشاهده خلالها ولم تسمع اى أخبار عنه.

أقبلت عليهما الخادمة حاملة مشروبا وأعقبها حضور والدتها "برلنتي هانم"برقتها وحُسن هندامها وهى تتوكأ على عصا أبنوس سوداء جميلة .. وضع "طارق" كوب العصير جانبا وأتجه إليها باسما سعيدا مصافحا يدها الخالية مقبلا لها كما تعود معها منذ صغره.

ـ أهلا بالخالة "برلنتي" نظرت إليه وتحسست شعر رأسه وهى تخبره:

ـ لما باشوفك بأفتكر شبابي وأنت و هنادى صغيرين وتلعبوا حولي هنا أو فى جنينة القصر .. ازاى صحة "نفيسة" هانم .. طمأنها وشكرها على السؤال والاهتمام .. اعتذرت بأنها ستعود لتجلس على كرسيها حتى لا يعاودها الشعور بالتعب والإجهاد وأخبرته بأنها أتت لاستقباله وستتركه ليداعب صغيرتها "هنادى"

عاد الشابين للجلوس في مواجهة بعضهما ، أما عن طارق فكان رأسه مشغول البال والفكر .. تساءل بداخله: (إيه الحكاية؟ .. ده عطف وإلا حب؟ ثم إبتسم لتخاريف وهواجس الأيام والأحلام وطرد تلك الأفكار الغير منطقية من رأسه المحشوة بصور وأحاديث سارة .. تذكر سارة وأبتسم فاعتقدت "هنادى" أنه يبتسم لها فزادت ابتسامتها ضياء وبهجة).

غادرا الحجرة وسارا بحديقة القصر فشاهدت سيارة والدها قادمة يستقلها فأشارت إليه فطلب من سائقه التوقف فأسرعا إليه فقبلت هنادي والدها بقبلة

حانيـة علـى جبين هذا الـشيخ الـذي قـارب الـسبعين مـن عمـره بينمـا صـافحه "طـارق" بكل احترام.

قدم له "وصفى باشا" التهنئة على نجاحه والتحاقه بالجامعة كما طلب منه بأن يبلغ أباه شكره على ما قام به من إصلاح ذات البين بين عائلتي "ياسين وبرعي" ثم ودعهما وهو مازال جالسا فى السيارة ..

سارت هنادى بجوار طارق وقد ارتدت فستانا على آخر صيحة من موضات ذلك الزمن "فستان فوق الركبة" وشعرها الذي انسدل خلف ظهرها مع تطاير بعض خيوطه بجوارها من جهة "طارق" ، كانت تضع يديها خلف ظهرها متشابكتين وتسير تتمايل يمينا ويسارا وتتوقف للضحك إذا تحدث "طارق" بشيء ضاحك مبهج وما أكثر حديثهما الضاحك ، نظر إليها فشعرت بما يدور في فكره وما الذي يرغب في قوله ولهذا لم تدعه يتفوه بما فكر فيه بل تحدثت قائلة:

ـ أوعى تقول تأخرت!! فاهم؟ الأمسية دية بتاعتي وإلا لك رأى تاني؟ وإلا خسارة فى زميلتك بالمدرسة تلاتاشر سنة؟

تركها مبتعداً قليلا وأتجه الى ساق إحدى أشجار المانجو الضخمة وأستند بظهره عليها .. أقبلت عليه تتحرك ذات اليمين وذات اليسار وهى مازالت بنفس طريقة سيرها متشابكة الكفين خلف ظهرها وشعرها الناعم المسترسل الطويل يتابع سيرها طائرا خلفها وفستانها القصير نسبيا يرتفع من أثر هبوب الهواء فيعطيها جمالا وفتنة مع حذائها الأبيض ذي النصف كعب جعل قوامها ممشوقا

.. أقبلت عليه واقتربت منه .. وضع يديه بين ذراعيها ووسطها وفك ربطة الكفين وأمسك بهما وهى مازالت تنظر إليه نظرتها الأولى السابحة الطائرة فى السماء.

بصوت خافت لعدم مقدرتها على الحديث:

- "طارق" فيه إيه؟ بتبص ليا كده ليه؟ مازالت شفتاه منفرجتين قليلا بوضع ثابت مبتسم لا يستطيع تغيير هذا الوضع .. يجيبها:

- هنادى .. أقول حاجه ومش ح تزعلي؟

- قول اى حاجه ومش حازعل

- سبق إنك زعلتي منى مره وبأديك الحلوة طبطبت على خدي .. ابتسمت له وتحسست وجه بأصابع عمياء متسائلة:

- عايز تقول إيه؟

- والله ما أنا فاكر. تضاحكا سويا

- مش مهم .. المهم إنك معايا

- ايوه افتكرت .. هنادى أنت حلوه خالص وجميله.

- صحيح؟

- إلا صحيح !! أنتِ عامله زى ملكة الجمال لا لا ملكة جمال إيه أنت حاجه أحلي من كده بكتير

- أنا أحلى وإلا البنات اللى فى الجامعة؟

- أنتِ حاجه تانيه .. جميلة ورائعة .. أنتِ زهره طبيعية.

ـ طيب أنا أحلى وإلا سارة؟

تلعثم وتوتر وفقد النطق وتغير وجهه ونظر إليها بألم وحزن وقد شعرت هى بذلك فنظرت أرضا وقد تبدل حالها وخاطبته.

ـ خلاص يا "طارق" روح لها. مع السلامة .. تركته عائدة متجهة الى القصر غاضبة.

تنبه وأسرع خلفها وأمسك بيدها وهى متمنعة عليه ولكنه أستطاع إقناعها وأخذ بها ووقف أسفل شجرة المانجو فاستندت بظهرها على جذع الشجرة ونظر إليها مليا ثم عاد للخلف بضع خطوات ليملى نفسه من تلك الحورية الرائعة ثم عاد وأقترب منها ووضع ذراعه اليمنى بجوار رأسها ناظرا إليها متسائلاً:

ـ ليه بتسألي عن "سارة ومش بتسألى عن بشرى"؟

ـ أنا شاعره إنك ميال الى سارة أما بشرى فتعتبر بالنسبة لك زميله وصديقه وبلديات ومعرفه

ـ طيب وأنا إيه بالنسبة لكِ؟

ابتسمت له ابتسامة يفهمها كل شاب يعلم عن الحب وأسراره

حدثته ضاحكة وهي مترنحة ذات اليمين وذات اليسار ، أمسك طارق بيدها يحركهما ذات اليمين وذات اليسار ضاحكا بسعادة متسائلاً:

ـ أنتِ خايفه؟

تركته مغادرة المكان قائلة:

ـ تصبح على خير .. واختفت بين الأشجار .. تنبه يبحث عنها دون جدوى .. وقف يحدث نفسه:

(يخرب عقلك يا "هنادى" .. أنتِ كبرتِ وبقيتِ عروسه وإدورتي ولفيتي دماغى وعليها كلام حلو زيها ... لها حق ماهى كانت أشطر تلميذة فى المدرسة فى اللغة العربية وعضو لجنة الأدب والشعر ... الأجازة الجايه مش حاسيبك يا أنا يا أنتِ).

ضحكت "هنادى" بداخلها حيث سمعت حديث هذا الشاب الصريح على حد قولها حيث كانت مختبئة خلف مجموعة الأشجار المتشابكة ، حمدت الله أن المكان لم يكن به أحد غيرها وألا كان البعض قد سمع حديثه وتقولوا عليها بكلام سيء فى مجتمع القرية المحدود .. شاهدته يغادر باب القصر الرئيسي وهي عائدة الى حجرتها ، جلست على الكرسي الهزاز تعيد بعضا من حركاته وسكناته وكلماته ولكن مجرد أن سمعت حديثه الأخير حتى انفعلت ونهضت تدور حول نفسها راقصة تغنى أغنية جميلة تناسب الحدث والحديث:

دور عليه تلقاه دور يا للي عينيك شايفاه .. وبرضه بتدور

دور عليه دور ....

*****

كالمعتاد تقابل كلّ من "طارق وسارة" بعذ إنتهاء يومهم الدراسي وتوجها للتنزه على ضفاف النيل من جهة الجامعة يتسكعان قليلا ويجلسان كثيرا

ويتناولان "الذرة" المشوي والترمس ويتحدثان بعض الوقت ويبتسمان أوقات أخرى إلا أنها قطعت سكون الزمن متسائلة:

- لما سافرت البلد تقابلت مع "هنادى"؟

أضطرب ولم يكن يتوقع ان تسأله مثل ذاك السؤال خاصة أن هنادى هى الأخرى سألته نفس السؤال .. تحير فى الإجابة وبعد قليل أستدرك الموقف متسائلاً:

- ليه بتسألي؟

- الحقيقة شايفه أثر "هنادى" على وشك!

- إيه الكلام اللى بتقوليه ده؟ .. يعنى لما أقابل هنادى وهى بتزور أمي تبقى عملت أثر على وشى .. يظهر أن دراسة الطب أثرت عليكِ .. ضحكت ضحكتها التى تعطى النفس السعادة والسرور

- دا أنت اللى نسيت تأثير الكيميا البشرية على الناس!

بلباقة تخلص من تلك الأسئلة وأشار إليها بالنظر ومتابعة سباق القوارب بالنهر وتناسيا هذا الحديث لمتابعة السباق ثم عاد ونظر إليها متسائلاً:

- على فكرة أنا سمعت فى العزبة أن عمى "ناحوم" بيبيع فى ممتلكاته .. إيه السبب؟

- السبب واضح .. بابا عايز يعيش هنا فى القاهرة وبيقول دراستك طويلة يا سارة ومش معقول تعيشي عند عمك إسماعيل سبع سنين وفى مصر ست سنين

وبعد التخرج يمكن تشتغلي فى القاهرة وأنتِ حيليتنا أنا وأمك ففكرت أنهى كل معاملاتي بالقرية وأبيع الكام فدان وأجي استقر فى القاهرة ونعيش سوا.

ـ فكره حلوه .. بس أنا سمعت من بعض الفلاحين أن عم "ناحوم" خايف من القوانين الاشتراكية التى أصدرها جمال عبدالناصر وانه خايف على فلوسه ..

ابتسمت معلقة:

ـ سيبك من كلام الفلاحين .. دا كلام ناس عُبط وعايشين فى الماضي

بعد مضى يومين على هذا النقاش جاءته سارة طالبة منه مرافقتها ليشاهد شقتهم الجديدة .. أسعده هذا وسار برفقتها الى حي الظاهر وهناك فى عمارة قديمة صعدا الى الدور الثالث وأخرجت المفتاح من حقيبة يدها وأدارت كالون الشقة ففتح بابها .. تبعها وتجولا بالشقة من حجرة الى أخرى ، كان باديا على الشقة الفخامة والأبهة مقارنة بمنزلهم بالقرية .. شعر بأنه لا يوجد أحد بالمنزل فسألها فأيدت استنتاجه بأن والديها فى زيارة المعبد فى وسط البلد بشارع عدلي.

أعدت له مشروبا وحادثته حديثاً رقيقاً وتطور الحديث الى الهمس ثم بأصابع يدها داعبت وجهه وشعر رأسه فشعر "طارق" بأنه ليس على ما يرام وأن شيئا فى الأفق سوف يأتى بين لحظة وأخرى .. حاول المقاومة ولكنها كانت أشد منه جاذبية وسحرا احتضنته وقبلته وهو مازال مستسلما الى قدره .. شاهدها كما شاهدها لحظة محاولة "زناتي "الاعتداء عليها. تخوف وتصبب عرقا ، حاول النهوض من فوق السرير ولكنه لم يستطع الوقوف وشعر بعرق غزير هاجمه وفقد وعيه وسقط على المرتبة بقوة سمع أثناءها كسراً لأحد الألواح الخشبية ،

تنبه إلي نفسه فشاهد سارة بجواره وقد تحللت من كثير من ملابسها ولم يتبق إلي القليل الذي يثير الشهوة ويؤجج المشاعر والأحاسيس ، نظر إليها نظرة الرغبة والاشتهاء حيث كانت فاتنة إلي أقصي درجة ، تبادلا العناق والقبلات والآهات واللمسات ، كان مستعدا لعمل أي شيء ليفوز بها ويشبع نزوته التي تفتحت فجأة علي مشاهد العري التي قامت بها وأجادتها إجادة تامة.

بعد قليل تنامي الى سمعه حديثا ولكنه لا يرى ولا يفهم ولكنه تنبه الى أن "سارة" ما زالت بجواره تحاول التأثير عليه .. سمع لغطا فى المنزل ، نهضت سارة وتركته علي حاله وارتدت بعضا من ثيابها وتوجهت تحادث المتحدثين ، تأكد له أن من بين المتحدثين والديها "ناحوم وألين" فهو لا ينسى أصواتهم بسهولة ولكنه سمع أمها تخاطبها:

- إيه اللى حصل؟ وألا؟ أجابتها بضيق:

- وألا!! .. لم تستكن ألين بل طلبت منها إعادة المحاولة مرة أخرى .. تجيبها "سارة":

- ماما .. "طارق" رافض الحكاية دية .. تتساءل :

- يعنى حنسيب مصر من غير ما تكونى حامل؟ .. إحنا مش حنروح إسرائيل .. إحنا حنطير على قبرص ومنها نفكر نروح فين .. لازم تحملي علشان تبقى أم ونمنع الوكالة اليهودية أنها تدخل بكِ الحرب .. ده ح يحميك .. فكرى فى واحد تاني .. تجيب:

- مش ممكن حد تاني يقرب منى غير "طارق" هو ده وبس .. ده حبى فى الدنيا.

طال الحديث وتاه من أذن الفتى النائم فى السرير لا يعلم من أمره شيئا ..
أفاقه "ناحوم" بصوته المميز الرخيم الذي يشبه صوت إنسان أصيب بالزكام ..
نهض وغادر المنزل برفقة "سارة" ، لم يتحدث أي منهما أثناء سيرهما
بالطريق ، اقتربت منه أثناء سيرهما وأمسكت بيده القريبة منها ودني فمها من
أذنه تبثه كلمات الحب الجميلة والمحشوة ببعض كلمات جنسية خفيفة لكنها تثير
المشاعر والأحاسيس (طارق .. نرجع تاني البيت وتفضل معايا للصبح .. بابا
وماما خرجوا وح يبيتوا عند طنط راشيل .. مش بتتكلم ليه؟ مش عاجبك
كلامي؟ أنا شاعره إنك مش بتحبني .. طارق .. قرب مني .. عايزه أبوسك
والحته دية ضلمه والشارع فاضي .. لم تجد إي استجابة ، لقد فقد الشاب النطق
والمشاعر والأحاسيس حيث كانت جرعة الشهوة المكتومة لدية عاليه ومازال
يقاومها بكل جلد وصبر مما أثر عليه وجعله في حالة من التوتر والإرهاق
ولهذا كان العرق يتصبب منه رغم أن الوقت في المساء خلال فصل الشتاء
حيث شهر ديسمبر ، لم تجد منه أي مرونة أو فائدة فظلت صامتة حتي وصلا
الى محطة الترام ، ودعها بصمت الكلمة وبإشارة خفيفة واستقل الترام متجها
إلي الجيزة بينما كانت سارة في أشد حالات الضيق والحنق منه لعدم تلبية
رغبتها التي كانت في أشد جذوتها في تلك الليلة فلم تستطع طوال علاقتهما
السابقة أن تنفرد به مثل تلك الليلة بالإضافة إلي دفع والديها لهذا العمل لإنقاذها
من الوكالة اليهودية والدفع بها لإسرائيل ودخول حروب متوالية مع العرب.

جلس طارق داخل الترام لا يعي ما حدث له ولم يتفهم ما سمعه .. أراد ترتيب الكلمات ولكنه عجز عن ذلك وشعر بضيق وألم لما أصابه .. لقد كان فى الأعوام السابقة يستمع للأحاديث السيئة عن سلوك بعض اليهود ولم يقتنع بهذا لأن ما شاهده من تلك الأسرة كان واضحا أمامه فلم يحدث منهم اى شيء يدفع الناس الى كرههم ولكن الحكم العام من المصريين على الإسرائيليين أنعكس على اليهود المصريين أيضا وليس اليهود الإسرائيليين الذين استباحوا فلسطين وهاجموا مصر منذ عدة أعوام فى حرب السويس الشهيرة.

عاد إلي حجرته بالمدينة الجامعية متوتر الأعصاب وقد أصبحت مشاعره وأحاسيسه متداخلة ، طار بفكره إلي هنادي وأصبحت الفتاتان أمامه ، بدأ بالمقارنة بينهما ، كانت الفتاتان تتمتعان بمقاييس جمال بدني صارخ لكن سارة تتفوق علي هنادي في نمو جسدها مع نظرتها التي تثير مشاعر أي شاب ترغب أن يراها ، كما أن سارة تستطيع التحكم في مشاعرها ولكنها إذا رغبت في شخص ما فهي قادرة علي أن تجذبه إليها بكل سهولة ويسر كما أن طارق ذا حظوة لديها فهي لم ترغب في أي شاب رغبتها فيه منذ أن كانا أطفالا يلهون في جدول الماء ، كان تركيزها عليه وتركته ينمو حتي تحول حبه إلي قلبها منذ الصغر خاصة يوم أن رد عدوان زناتي عنها ، لقد اعتبرت تصرفه هذا تصرف فارس يذود عن حبيبته بأن يضحي بحياته في مواجهة أي اعتداء علي حبيبته من أي شخص يرغب بها فهو علي أتم الاستعداد لأن يفتك به ، ورغم أن

المعتدي في الماضي كان قادرا بالقضاء علي طارق ، ازدادت مشاعرها بمضي الأيام مع النمو الجسدي وترافق هذا مع قراءتها لروايات الحب والغرام.

مازال طارق يشعر بوجود "هنادي" في حياته ، كان تأثيرها قويا عليه وأنها كانت السبب الهام والمباشر في أن تنقذه من تأثير سحر "سارة" علي مشاعره حيث كان شعوره بالحب الطاهر العفيف نحوها مع احترامها لعفتها وُحسن ُخلقها ورقة مشاعرها ، كان هذا الإحساس هو أهم عامل من العوامل التي منعت طارق من تلبية رغبات صديقته سارة خاصة أن تأثيرها عليه كان قويا كما كانت تعليقات زملائه بالجامعة وما يتحدثون به عن مفاتن سارة تدفعه إلي التمعن فيما يتحدثون عنه فكان يجد أن هؤلاء الشباب ُمحقين في تصريحاتهم بل تعدي هذا إلي الفتيات اللائي كن يشعرن بالضيق والنفور من إعجاب الشباب المنصب علي سارة وحدها والتي أصبحت حديث الجميع.

نهاية الأسبوع شاهد طارق صديقته "سارة"ُمقبلة عليه وكانت فى أجمل وأبهي صورة لها ، تقدم لاستقبالها ولم ينتظر وصولها الى مكان وقوفه .. أعتذر لزملائه وغادر المكان بصحبتها وجلسا سويا على ضفة كورنيش النيل .. سلطت شعاع عينيها عليه فغمرته النشوة والسعادة بهذا الملاك الجميل الذي يجلس أمامه ولكنه تذكر أن هذا الملاك تصرف بما يخالف أخلاق الملائكة الطاهرة التي لا يداخلها الشيطان ، هنا وجه إليها بعض الأسئلة وكلها تدور حول ما حدث بينهما فى الأسبوع الماضي .. كان يعتقد أنها سوف تخجل من

أسئلته تلك ولكن ما أدهشه جرأتها وعدم شعورها بالإحراج او الخجل . أجابته بكل وضوح.

- "طارق" كنت عايزه طفل منك!!

أصابته الدهشة ونظر إليها مليا ولم تجعله يفكر فأكملت حديثها

- إحنا منقدرش نجوز لأن ديانتي تمنعني من الجوازة دية وانا عايزه طفل وأنت رافض .. أتصرف إزاي .. تتسائل:

- ليه أنت ساكت وما بتقولشي حاجه؟

- طول حياتي أسمع العكس .. بل شفت العكس .. "زناتي" هجم عليكى وحاول اغتصابك ولكن عمرى ما سمعت أن بنت أو ست تعمل العكس .. ببطن يدها ملست على خديه قائلة:

- يا عبيط .. علشان بأحبك!!

- تقومي تعملي كده؟ .. طيب نجوز ونجيب عيل او اتنين فى الحلال بس بعد التخرج .. دي السنة التانية لنا فى الجامعة ليه نستعجل؟

- مش بأستعجل لكنى عايزه أحط الحاخام قدام الأمر الواقع علشان يوافق على جوازنا لما يعرف أنى حامل منك يقوم يوافق على طول.

أستمر الحديث بينهما طويلا عقيما باردا رديئا ، لم يستطع أن يجيب على الأفكار التى هاجمت صديقته بل واعترافها أمامه بأنها وعائلتها رتبوا كل شيء لما كانت تنوى أن تفعله معه من أجل زواجهما .. تركها مودعا وهى أيضا كانت تحمل نفس الرغبة فى وداعه لكن بطريقة أخرى فاحتضنته بقوة وقبلته

أمام المارة وهم ينظرون إليهما والبعض منهم تحدث بكلام سيء لقلة الحياء ثم تركته مغادرة المكان ولم يشاهدها كأنما يد قد اختطفتها .. حاول تتبعها الى محطة الأتوبيس وفشل في أن يراها , بعد قليل شاهدها تستقل سيارة ملاكي بجوار شاب وسيم وتعمل علي تجفيف دموعها التي سقطت من عيونها الجميلة.

توقف عن التفكير والسير وتساءل: ماذا حدث ومن هو ذلك الشخص الجالس بجوارها فى السيارة ولماذا البكاء وهل هذا الشاب اختطفها أو أنها جلست بجواره برغبتها وكيف تم كل هذا بتلك السرعة؟ صمت قليلا واعتقد بأنه كان في انتظارها وثارت في صدره الشكوك التي أشعلت نار الغيرة علي صديقته.

عاد إلى المدينة الجامعية مرهقا مضطربا ولم يستطع المذاكرة ، بعد قليل طرق باب حجرته جاره منصور .. جلس الشابين يتبادلان أطراف الحديث وكان طارق راغبا فى أن يسأله النصح فيما عن له ولكن منصورا هو الذي فاتحه فى الحديث متسائلاً:

- طارق .. حتفضل ماشى مع البت اليهودية دي؟

كان السؤال مفاجئا له ولنوعيته ولأسلوب طرحه الفظ حيث أن طارقاً دائم الشعور بها.. أجابه بضيق:

- إيه الكلام ده؟ وليه بتقول عليها كده؟ .. هيه مصريه قبل ما تكون يهودية.

قاطعه منصور ..

ـ البت دي يهودية بنت يهودي ، دول عالم مجرمه وشوف اللى عملوه فى حرب ٥٦ مع الجيش المصري وده ابعد ما يكون عن أسلوب الحرب الشريفة وكمان اللى أتعمل فى الصابحة ودير ياسين .. إجرام فى إجرام .. أبعد عنها وكل الزملا بيتكلموا عنك وعنها .. دوول ما لهمش مله .. ممكن تحط لك سُم في الأكل أو الشرب.

شعر "طارق" بضيق مما سمعه وفكر فى المخاوف التى بثها صديقه فى رأسه وتساءل: هل من الممكن أن يحدث هذا؟ عاد بذاكرته الى الوراء وحمد الله أنه لم يخبره بما حدث بينهما بمنزلها بالظاهر ولكنه تراجع خوفا من أن يخبر منصور بعض أصدقائه وفى هذا تعريض لسمعة صديقته "سارة" مهما كان رأى منصور فيها ، فهي علي الأقل تملكت عليه بعضاً من مشاعر الإخوة والحب الذي نما بينهما نظرا لطول معاشرتها لأسرته ، قدم شكره لزميل المدينة الجامعية وعاد طارق الى حجرته مهموما مكبوتا وظل يفكر فى كل ما اختمر بعقله ولكنه لم يصل الى أي نتيجة.

لم يشاهدها طوال هذا الأسبوع وقرر فى نهايته أن يتجه الى كلية الطب للسؤال عنها .. هناك تقابل مع صديقتها التى أخبرته بأن سارة لم تحضر الى الكلية منذ بداية الأسبوع واحتمال أنها مريضة وهى لا تعلم أين تقيم؟

أخبرها بأنه يعلم مكان إقامتها وسوف يتجه اليوم الى منزلها للاستفسار عن سبب تغيبها عن الدراسة .. تشجعت الفتاة ومعها صديقتين لمرافقته الى منزل سارة .. وصلا الى المنزل وظل يطرق الباب بيده دون مجيب وبعد قليل ظهر

إليه الساكن المواجه للشقة وحينما سأله "طارق" عن عم "ناحوم" أخبره الرجل بان الأسرة تركت السكن وسافرت الى اليونان !!

نظر إليه الشباب بدهشة مما سمعوه ولكن الرجل أفاض فى الحديث بأن جميع اليهود قد هاجروا من مصر خوفا على أملاكهم واتجهوا الى إسرائيل للوقوف ضد مصر ومحاربتنا .. انتهى الرجل من حديثه بينما ظل "طارق" صامتا دون حراك لا يعي شيئا مما سمعه .. نبهته الفتيات الى إنهن يجب أن يغادرن المكان ولكنه لم يتحرك وشاهدنه والدموع تتساقط من عينيه .. اندهشن لهذا مما دفع الجار الى سؤاله:

- هو أنت منهم؟

نفى ذلك بشدة قائلا انهم بلديات لأسرته وقد حزن للفراق وطالما أنهم سيقفون مع إسرائيل ضد مصر فهو حزين وكاره لكل من يقوم بهذا الفعل ، شكره الرجل وأثنت عليه الفتيات لوطنيته وشعوره نحو بلده وسار بصحبتهن الى محطة الترام ثم افترقوا كل الى منزله.

عاد الى المدينة الجامعية فى حالة من التوتر الشديد ولم يع كيف التصرف؟ .. هل يشكو الى صديقه منصور ولكن هذا الصديق مندفع كاره لكل ما يفعله اليهود بالعرب وبمصر بالذات .. أغلق قلبه على ما يكابده من ألم نفسي وقرر أنه فى صباح الغد سوف يتجه الى صديقته الثانية بشرى يبثها مشاعره المنهارة.

وصل جامعة عين شمس وظل يبحث عن بشري حتى عثر عليها فاستقبلته باشة الوجه سعيدة بحضوره لزيارتها مستفسرة لماذا لم تحضر "سارة" برفقته. أخبرها بالمأساة التى تعرض لها بالأمس لعلمه بسفرها وقد أصابت الدهشة "بشرى" أيضا وأيدت حديث جارهم بالظاهر بأن الكثير من اليهود هربوا بأموالهم الى خارج مصر لضرب الاقتصاد القومي والوقوف فى صف الأعداء بل أنها أخبرته بأن راعى الكنيسة حذرهم من التعامل مع هؤلاء القوم ورغم هذا كانت تتجاهل هذا لأن "سارة" صديقتها وستظل إلا إذا اتجهت الى إسرائيل وانخرطت فى جيشها فسوف تصبح خائنة لمصر.

على استحياء أخبر "طارق" صديقته "بشرى" بما حدث بينهما الأسبوع الماضي ومحاولة "سارة" الحصول منه على طفل قبل سفرها وقد وضعت الفتاة يدها على فمها من قسوة ما سمعته قائلة حتى أنت يا صديقنا العزيز وما لأسرتك من فضل علينا نحن الاثنتين أثناء تعلمنا ومكوثنا فى ضيافتكم سبعة أعوام .. أتفعل هذا بك وأنت لا تعلم لو نجحت فى مقصدها لتحكمت بك قبل أن تنال عقاب الرب فى الآخرة.

ســـارة

جلست بحجرتـي أشـاهد الأمطـار المنهمرة ولا يفصلني عنهـا سـوي زجـاج النافذة ويدور فـي فكري وعقلـي أسئلة عديـدة: مـاذا حدث لـي؟ لقد تمـت كـل إجراءات سفرنـا ومغادرة مصر بسرعة كبيرة حيث كنت أشعر بأنني مُغيبة ولا أستطيع وقـف انـدفاع الأحـداث وتواليهـا .. آه علـي تلـك الـدموع الحارقـة التـي تنهمر من عيونـي الجميلة ، كل هذا بسبب ألاعيب الساسة والسياسة ، كنا نعيش ونحيا في وطننا مصر الحبيبة ، ياه علي مصر وشعبها الرقيق الجميل المتسامح ، كنت أشعر بأن شيئا غير طبيعي يحدث منذ همست أمـي فـي أذنـي بـأن أعمل كل الطرق والحيل لأن أنجب طفلا من حبيبي طارق ،ُكنت في دهشة من تلك الأمنية ، فأنا أعلم أنها لا تفضل طارقا علي الآخرين من أبناء الطائفـة اليهوديـة بمصر وهي تعلم أيضا بأنني أخشي اقتراب أي شاب مني منذ حادثـة "زنـاتي" المشئومة.

حاولت مناقشتها في تلك الفكرة والرغبة الجامحة الغير طبيعية ولكنها كانت صلبة الإرادة علـي غير العـادة ومـن حين لآخر كلمـا توجهت إلـي القريـة فـي عطلة نهاية الأسبوع تعيد عليّ رغبتها تلك وأنا أستفسر منها ولا أسمع منهـا أي إجابة سوي أنها تبغي مولوداً لي تشاهده وتتمتع به قبل أن تلقي ربهـا ، أطالبهـا بتأجيل تلك الرغبة حتي نهاية دراستي ولكنها مازالت علـي رفضها وعنادها ، فـي أحد الأيام جاءنـي أبي علي استحياء يطالبني بتنفيذ رغبـة أمـي ، بلغت منـي

الدهشة أشدها فلقد اجتمع الاثنان علي رغبة فاسدة وهي إنجاب طفل دون زواج وهذا ما يحرمه ديننا وكتابنا المقدس ، أري خلف تلك الرغبة المستعرة هدفاً لا أستطيع الوصول إليه ، ماذا أفعل رغم إنني أعشق هذا الصديق منذ بدأت أنوثتي تتفتح وتنمو مع نمو جسدي ، لقد بدأ حبي له والتقرب منه منذ حادثة "زناتي" حيث شعرت بأنني مثل الأميرة ست الحسن وهذا الحبيب طارق هو الشاطر حسن الذي يضحي بكل شيء حتي حياته لإنقاذ حبيبته الأميرة.

بعدُمضي عدة أيام علمت السر وراء رغبة أمي حينما فشلت خطتها في استدراج طارق لمنزلنا وقضاء بعض الوقت معه يتم خلالها تنفيذ رغبتها ، ُكنت سعيدة بأنني سوف ألتقي بالحبيب علي أي شيء وبأي وضع ولكن كان يراودني ضيق بأن هذا ملعوب سأقوم فيه بتأدية دور شيطاني سيء علي صديق الطفولة والعمر ، هل من المعقول أنُ يصبح هذا التصرف هو رد الجميل سواء له حينما دافع عن شرفي أو لما قام به والده من رعايتي ورعاية صديقتيُ بشري لمدة سبع سنوات أثناء تلقينا العلم في المرحلتين الإعدادية ثم الثانوية ، هل هذا هو رد الجميل لوالدته الخالة نفيسة لما قامت به معي ومع بشري من رعاية وإعداد للطعام والسهر علي راحتنا بل وإعطاء النصح والإرشاد حينما بلغنا مبلغ النساء وما يحدث للفتيات خلال تلك الفترة من مشاكل صحية ونفسية عند التحول من مرحلة الطفولة إلي مرحلة البلوغ؟

تعاقبت الأحداث عليّ بعد هذا بسرعة وقام أبي بمساعدة بعض أبناء طائفتنا بالقاهرة باستئجار شقة انتقلنا إليها جميعا ،ُكنت أشاهد أبي قبل انتقالنا إلي

القاهر يستقبل العديد من الرجال اليهود وبعض السيدات أيضا ويدور حديث هامس ساكن لا أعلم عنه شيئا ولم يفصح لي أحد بما يدور بينهم ، حين نزحنا للقاهرة علمت بأنهم يخططون للهجرة إلي الدولة الجديدة التي أسست منذ أكثر من أربعة عشر عاما كانت تلك الدولة إسرائيل أرض الميعاد ، فليكن ولكن هذا هو وطننا الحبيب الذي ولدنا فيه ونشأنا وجمع منه والدي ثروة لا بأس بها بينما باقي المصريين خاصة الفلاحين منهم يمضون أيام حياتهم علي الكفاف والعوز ، بهذه البساطة نترك هذا الوطن ونتجه لمكان جديد به كل الصراعات والحروب من أجل هدف لا أعلم حقيقة مصدره ، هل صدر من الرب حقا؟

لقد نشأ نبينا موسي بتلك البلاد ونما وترعرع ومن خلفه باقي اليهود الذين تبعوه ، لماذا نتجه إلي بقعة أخري لتأسيس دولة يهودية ومن قبل أن تنشأ تلك الدولة بدأت أولي خطوات إنشائها علي أشلاء ودماء البشر ، هم من كانوا يقيمون علي تلك الأرض.

توجهت قبل السفر والهجرة إلي قريتنا "عزبة كتكت" وكان يوم جمعة والتقيت بالكثيرين والذي أعرفهم ويعرفونني ، النساء والفتيات احتفلن بي احتفالا طيبا وهن ينثرن علي أرق العبارات وكل نداء يسبقه الست الدكتورة مع عبارات جميلة طيبة مثل بدر وقمر والجمال والحلاوة والعسل الأبيض الصافي ووجهي المماثل لطبق القشدة.

اليوم التالي توجهت إلي وسط القاهرة بشارع عدلي وأديت آخر صلاة لي بمصر بهذا المعبد المهيب والتي كنت ألتقي بداخله بالعديد من الأسر اليهودية ،

غادرت المعبد ووقفت بجواره من الخارج واقتربت من الحائط أهمس بجداره متسائلة عما نقوم به وكنت أقبل تلك الجدران ودموعي تنساب كسيل مندفع من علٍ ، كنت أحدق في الناس وأشاهد الابتسامة الصافية علي الوجوه ، لم أشاهد عبوسا من أي إنسان ، الجميع تشملهم الراحة النفسية والهدوء ولا أعلم له سببا سوي الشعور بالراحة وبأن الله يرزق الناس جميعاً ولا ينسي أحداً من عباده أبدا.

هذه هي الليلة الأخيرة وقد أعدت العدة بعد نجاح العديد من العائلات اليهودية في تهريب الأموال والمشغولات الذهبية إلي الخارج والكثير منها كانت ملكا لأناس فقراء قاموا برهن مصاغهم من أجل بضع جنيهات والبعض قام بسداد جزء كبير من قيمة الرهن ولكن الجشع أعمي عيون هؤلاء المرابين وكأن اليوم أشبه بالبارحة حين حصل العديد من اليهود علي ذهب المصريين وفروا مع موسي إلي الحدود هربا من الفرعون.

لقد حصلت العائلات اليهودية علي تأشيرات سفر للعديد من الدول الأوربية سعيا للانتقال بعدها إلي أرض الميعاد إسرائيل ، كانت المنظمات اليهودية علي درجة عالية من النشاط في إنهاء إجراءات سفر أبناء الطائفة وحجز الأماكن بالبواخر للسفر ، قبل السفر بيومين التقي والدي ببعض الجيران المسلمين والأقباط وهمس في أذنهم بأننا سوف نتجه إلي اليونان حتي يعمل علي تضليلهم ولا نفصح عن مكان هروبنا المرتقب.

لقد التقيت بحبيبتي "بشري" قبل سفري بيومين وقمت علي وداعها وكانت الدموع تغالبني وهي تستنهض الهمة لأفصح لها عما أكابده ،'كنت في حيرة هل أخبرها بما نويت عليه أسرتي أو أظل ساكنة؟ جاء الحل والإجابة من بين شفتيها بأنها تعلم بأن ما أقاسي منه سببه الأول يرجع إلي حبي لطارق والذي لن يري النور والسعادة لاختلاف العقيدة بالإضافة إلي التوتر السياسي بين المسلمين واليهود علي الحدود الشرقية لمصر خاصة بعد الحربين التي قامت بينهما وما نتج عنها من خسائر بشرية للمصريين أثرت في نفوس الشعب المصري الذي أصبح كارها لوجود اليهود علي أرض مصر.

أما عن هذا الحبيب الخجول والذي لم أتمكن من الفوز به رغم الخلوة التي جمعتنا سويا بشقتنا بالظاهر ، إنني أرغب فيه فلا مجال أمامي لأن تتجه مشاعري لأي رجل آخر فلقد كتبت علي الحياة أنه لا حبيب لي سوي هذا الشاب الرقيق زميل وصديق مرحلة الطفولة .. ماذا أفعل في تلك العيون الدامعة؟ يجب عليّ أن امتنع عن البكاء فلقد تم كل شيء بسرعة وأصبحنا خارج الوطن ونتجه الآن إلي المجهول ولن نري مصر ثانية ، لقد ضاعت أحلامي وتبخر كل ماض حلو في حياتي السابقة ، لعنة الله علي السياسة والحرب.

سوف أنضم لتلك المجموعة من الشباب من الجنسين الذين يهللون ويصفقون ويرقصون احتفالا بمغادرة ميناء الإسكندرية إلي الأبد وكأننا نغادر معتقلا أو مكانا للأسري الذي أقامه النازيون لليهود خلال الحرب العالمية الثانية

، يشيرون إليّ بأن أتوجه إليهن كما أقبلت عليّ بعض الفتيات وهن في غاية المرح والسعادة والبعض يتلفظ بألفاظ نابية في حق وطني الحبيب مصر ، أحاول الاعتراض دون جدوى ، أنظر إليهن قائلة لقد أعمتكن السياسة ولن نجد وطناً مثل وطننا الأصيل مصر الذي لا يفرق بين أبناءه ، لقد نجحت بتفوق علي مسلم وقبطية أي حصلت علي نتيجة مجهودي والتحقت بكلية الطب وُطبقت عليّ مجانية التعليم مثل الآخرين ولم يحدث تفريق في المعاملة ، بل لن أنسي مسجل كلية الطب حين توجهت إليه بطلب سحب أوراقي لتحويلها إلي كلية الطب بجامعة "يوركشير" وحين أنهي جميع الإجراءات بسرعة دون تعقيد نظرت إليه متسائلة: (ياه أنتم ما صدقتم تخلصوا منا) كان الرجل حليما حيث قال: لو رغبت في إعادة الأوراق فلن أمانع وسوف يسعدني هذا لكن التعليمات تصدر إلينا بالا نقف عقبة أمام رغباتكم فأنتم أحرار في البقاء أو المغادرة.

مضي يومان علي إبحارنا من ميناء الإسكندرية وأخبرنا القبطان بمكبرات الصوت بأننا قد اقتربنا من السواحل البريطانية ، ماذا ينتظرني بتلك البلاد والتي لم تسمح لي الظروف بأن أقوم علي زيارتها سوي تلك الليلة بأن آتي إليها هاربة فارة كأننا قمنا بعمل إجرامي ونطارد ، كيف نضع أنفسنا في هذا الموقف ثم نلوم الآخرين ، طلبنا منهم السفر فلم يمانعوا والبعض ظل بمصر ، هل يضغطون علينا لنظل بمصر كارهين ، إذا رغبت في مفارقة شخص فلن يهرع إليك طالبا منك السماح والعفو بالبقاء.

تستعد الباخرة لأن ترسو بالميناء بعد أن استقبلتنا سفن الميناء بإطلاق صفارات الترحيب كما هو المعتاد عند وصول أي سفينة ُمبحرة ، أشاهد العديد من العائلات في انتظارنا بل أسمع أصوات الموسيقي تعزف بعض الألحان التي كنت أستمع للبعض منها بالمعبد اليهودي بالقاهرة ولا أتفهم معناها ، أقبلت عليّ أمي تشد من أزري فرحة وهمست في أذني قائلة: فلنشكر الرب علي نجاتنا من الفرعون ناصر أنه فرعون أشد كرها لنا من فرعون موسي ، كنت أتمني بأن تصبحي أما بعد عدة أشهر ولكن خاب رجائي فيك حيث كان طفلك سيحميك من ضغط الوكالة اليهودية بإرسالك لإسرائيل حتي تنتهي من دراستك ولكن الرب معنا وليحمنا حتي ُتنهي دراستك ، أنظر إليها بضيق وأخبرها بأن هذا لن يحدث أبدا ولن أتوجه إلي إسرائيل إلا بعد ان انتهي من دراستي حتي لو ضحيت بحياتي.

أعود ثانية إلي الواقع وأخرج من عباءة الذكريات ومازال المطر منهمرا أشاهده من خلف زجاج النافذة وقد اتحد الضباب مع الظلام ليحيط بالمسكن المتواضع الذي نزلنا به لأن الوكالة اليهودية قامت باستئجار العديد من المنازل القديمة علي أطراف المدينة حتي تقيم بها الأسر المهاجرة استعدادا لإعادة شحنهم إلي إسرائيل.

أقبل أبي يسير الهوينا ودموع الحزن لا تكاد تفارق عيناه ، أتساءل ماذا يبكيك يا أبي؟ يجيبني بهدوء بعد أن غادرت الفرحة وجهه منذ استعد لمغادرة مصر ، بكلمات هامسة مترددة يخبرني بأن رجال الوكالة اليهودية يضغطون

عليه لنقلهم بعد أيام قليلة إلي إسرائيل وقد حاولت إقناعهم بتركنا حتي تنهي دراستك.

أبي لا تحزن ولن أتوجه لإسرائيل دون رغبتي واتركني لهم ، غادر حجرتي وتوقف بجوار الباب وهز رأسه دليلا علي أنه قد وافقني الرأي وأخبرني بأنه سوف يعقد لقاء آخر معهم صباح الغد.

أستعد لهذا اللقاء الذي سوف يعقد بالغد وكلي حنق وضيق مما حدث وسوف يحدث وأنا أعلم أنهم قوم يتميزون بالإلحاح وإذا أصروا علي شيء فسوف يظلوا يلحون ويقنعون حتي توافقهم علي رغبتهم وإذا اعترضت فقد تصل في بعض الأحيان إلي التهديد والوعيد لتنفيذ تلك الرغبة ، في الصباح سوف ألتقي معهم ، لقد تركت حلو الحياة لأبدأ حياة جديدة شاقة وأناس أكره تصرفاتهم سواء مع أبناء الطائفة من المهاجرين أو مع أحبائنا الذين تركناهم بمصر.

نهضت صبيحة اليوم التالي أحسن حالا حيث كانت ليلة الأمس مؤلمة وفيها تجرعت ذكريات الحب الجميلة التي تركتها ، كنت قوية كما تعودت بمصر ، توجهت برفقة أبي إلي مقر مندوب الوكالة الذي كان يجلس وبجواره بعض المعاونين والذين استقبلوني بوجه باش وبعد حوار طويل معهم أخبرتهم بأنني لن أتجه إلي إسرائيل وإذا ظللتم في دفعنا دفعا دون إرادتنا فسوف أعود أدراجي إلي مصر.

شاهدت الصدمة علي وجوه أعضاء الوكالة بالقاعة لما أعلنته من تصريح وتبادلوا النظرات مستنكرين وأنا أعلم أنهم قد يحاولون دفع احد لقتلي عن طريق عصاباتهم المنتشرة في كل مكان ، رغبت في التهدئة قائلة: أتركوني حتي أنتهي من دراستي بعدها أتجه إلي إسرائيل وقد أصبحت طبيبة أخدم بها أهلي وعشيرتي من يهود العالم الذين سافروا إليها من الشتات تحقيقا لرغبة الرب ، شعر القوم براحة وأشار رئيسهم لي بالموافقة وصرح بأن أسرة ناحوم سوف تظل بالمملكة المتحدة حتي انتهي من دراستي.

عشت باقي الأيام التالية بعد هذا اللقاء بكل صعوبة سواء بالكلية أو بين البشر ، الدراسة باللغة الإنجليزية مثل ما كنت أدرس بالقاهرة ولهذا لم أقابل أي مشكلة لكن المشكلة كانت في البشر نظرا لبرود العواطف فلا مشاعر وأحاسيس مثل التي شعرت بها في مصر ، فلا استقبال حافل بعد عطلة نهاية الأسبوع ولا لقاء بالأحضان بين الفتيات او تبادل لكلمات الإعجاب والثناء علي الملابس وانتقائها او بعضا من المفردات والعبارات التي تقال عن الجمال مع وصف ما يميز كل واحدة منهن.

كنت أشعر بأنهن مثل قط جميل ونظيف ولكنه محنط ليس به روح لا يداعبك أو يلاعبك ، كانت المقارنة مع مصر مستمرة ، فبنات وشباب مصر مثل القط أيضا فقد تجد أن قطا غير نظيف أو مغبرا ببعض الأتربة أو ضعيف البنية ولكن مجرد أن تشير إليه بإصبعك يهرع إليك ويقفز علي ساقيك ويدفع

بفمه قريبا من وجهك ويحتك شعر رأسه بك ويلاعبك بذيله ولا يتركك إلا بعد أن تشعر بالسعادة وتظهر الابتسامة علي وجهك.

سرت خلال مرحلة التعليم الجامعي سيرا حسنا حيث ُكنت من المتفوقات فلم أكن راغبة في السهر أو إقامة علاقة حب بيني وبين بعض الشباب فقد أغلق قلبي منذ الصغر ولم يعد أحد يتربع بداخله سوي ذلك الحبيب النافر مني طارق .. لقد كتب علي الزمان ان يكون حبي من طرف واحد ولشخص واحد وأصبحت مثل الأساطير اليونانية التي تحكي عن حب الشخص الواحد وخلود الحب وحب الخلود حتي النهاية وأساطير أخري عن الحب الذي لم يتمتع أصحابه بمتع حسية مثل باقي البشر ، كنت أبتسم أحيانا حينما أتذكر المثل الشعبي المصري والذي يقول "يا عيني علي اللي حب ولا طلشي" كان هذا هو حالي.

قررت العلاج من تلك الحالة وقابلت أحد أساتذة الأمراض النفسية والذي أخبرني بأنه سيحاول تحديد خط علاج نفسي لمحاولة الشفاء من تلك الحالة ولكنه أخبرني بأن تجاربه السابقة مع مرضاه خاصة من النساء والفتيات لم تأتِ بنتيجة ملموسة ولكنه سوف يحاول معي وقد ُتصبح تجربتي التجربة الناجحة في هذا المضمار.

مضت عليّ عدة شهور من جلسات العلاج النفسي كنت أنتهي من كل جلسة بحزن وضيق حيث كانت تعيدني تلك الجلسات إلي التجربة المؤلمة التي حدثت لي علي يد "زناتي" ، كانت ذكري سيئة ولكن بسرعة كانت ذكري "طارق"

تطوف بالذاكرة ومشاهدتي له أثناء محاولة ضربه "الزناتي" بماسورة الحديد هي الدافع لي لأن أتخلص من ذكريات الحادث المحزنة.

مضت سنوات الدراسة ومازلت أحقق نجاحا وتفوقا كما ندرت بل انعدمت الرسائل المتبادلة بيني وبين "بشري" ، لقد رفضت طلبي بأن تزودني بعنوان "طارق" بعد أن غادر المدينة الجامعية في العام التالي.

العام التالي لإقامتنا بالمملكة المتحدة هاجمت الأمراض أبي وأمي خاصة أمي حيث أصيبت بمرض خطير بالصدر نظرا لحالة الطقس البارد كثير الأمطار المخالف لطقس مصر الجاف والصحي والشمس الساطعة صيف شتاء ، أما عن حال أبي فلم يعثر علي عمل في مجال المراهنات والذي كان يجيده في مصر فالناس في بريطانيا تتعامل مع البنوك في الإقراض اما نوعية الإقراض الذي كان يتبعه أبي فهو مخالف للقانون كما لم يعثر علي الصحبة المخلصة المسلية له وأين الناس هنا من قريتنا والجفاء هنا خاصة في المناسبات.

في أحد الأيام سمعت صوت أمي الواهن وهي تهمس لأبي كيف كان الفلاحون بعزبة "كتكت" يأتون إلي المنزل حاملين أوعية اللبن والقشدة والجبن والبعض يحمل هدايا من بيض المائدة أو من الطيور الداجنة وفي فصل الربيع كنت أشم رائحة تسييل الزبد البلدي لتحويلها إلي سمن ، أين كل هذا الخير ، لقد كانت المقارنة ظالمة وليست في جانب الإنجليز ، هناك فارق شاسع بين سلوك الناس في القطرين.

مازال الأطباء يقدمون لأمي العلاج اللازم ولكن هذا العلاج لم يستطع وقف زحف المرض الفتاك وبعد معاناة وصراع مع المرض لاقت أمي ربها قبيل الامتحان النهائي لي بالكلية ، كانت وفاتها صدمة قوية لي ولم أشاهد أو أشعر بالمساندة من الناس سواء الجيران أو من أبناء الطائفة أثناء مرضها أو وفاتها ، تذكرت الناس في مصر في تلك الأحوال وكيف يتجه الجميع لزيارة المريض ذاكرين أن زيارة المريض واجبة ونص عليها دين الإسلام الذي يعتنقونه ثم في حالة الوفاة يتجه الجميع لمنزل المتوفى مقدمين مساندتهم بل من الواجب عليهم إعداد طعام لأسرة المتوفى لأكثر من أسبوع حتي تلتئم جروحهم النفسية كما أنهم ملتزمون بإعداد الطعام لهم ولزوارهم من البلاد البعيدة والذين أتوا لتقديم واجب العزاء ولهذا فهم يقومون بهذا العمل الإنساني وبالتالي تشعر أسرة المتوفى بأن مصابهم هو مصاب الجميع وليس لأفراد الأسرة فقط.

كانت صدمة وفاة أمي علي أبي كبيرة وشعرت بأنه تقدم في العمر وأصبح هرما وهاجمته الشيخوخة فأصبح بلا ونيس بعد وفاتها ، كل يوم أعمل لمدة عشر ساعات في الكلية ما بين قاعة المحاضرات والمعمل والمستشفي التابع للكلية وقد انشغلت عنه بدراستي وبدا واضحا علي أبي حرمانه من العلاقة الاجتماعية السوية فلا يوجد هناك أرض زراعية سوف يتجه إليها ولا صديق مخلص مثل الخواجة "تاناس" يجالسه ويمازحه ، لقد دفنا أنفسنا ونحن أحياء دون سبب ، لو كان السبب لهجرتنا هو أننا ُطردنا من مصر لكان تصرفنا مقبولا ولكن سفرنا بتلك الطريقة السرية المهينة كان سوء تفكير وتدبر وهذا

ناتج من الساسة وغبائهم ومن اليهود السابقين والذين لحقنا بهم وسرنا علي نهج تصرفهم الأحمق.

ُعقد الاختبار النهائي منذ أسبوع واليوم أتجه إلي الكلية لأعلم النتيجة ، أشاهد البعض من الطلاب والطالبات في حالة من السكون الصامت والبعض الآخر فرحا وعلامة السعادة علي الوجوه ، كنت من الفئة الثانية حيث نجحت بتفوق وهذا التفوق قد يدفع بى لاستكمال دراستي العليا ، كانت الآمال كبيرة والسعادة تلفني وتطير بى ولهذا رغبت بأن يفرح معي الأحباب ، فكرت من يسعد لسعادتي بعد أبي؟ لم يكن هناك ادني شك في أن كلا من"ُبشري وطارق" سوف يسعدهم نجاحي وتفوقي مثلما سعدت العام الماضي بنجاح "بشري" والعام السابق له كانت فرحتنا نحن الاثنتين بنجاح الحبيب "طارق" ولهذاُ كنت راغبة في إرسال خطاب إلي صديقتي الحبيبة "بشري" ولكنني ترددت في آخر لحظة خشية رد فعلها السلبي حيث كان خطابها الأخير جافا وأبعد ما يكون عن علاقتنا التي ظلت لصيقة لعشرين عاما مضت.

بُشــري

أنهيت دراستي الجامعية وتخرجت منذ أسبوع وها أنا أنتظر بمنزل العائلة في انتظار خطاب التكليف من الحكومة حيث أن جميع الأطباء والمهندسين وخريجي كليات التربية يتم تكليفهم للعمل بالحكومة ، سوف أتجه لمجال العمل العام المتخصص وهو مجال الصيدلة وسوف أطبق ما تعلمته علي أيدي الأساتذة العظام بجامعة عين شمس ، أرغب بأن أضيف شيئا جديداً في هذا المجال.

أسمع ضجيج ماكينة طحن الغلال ورغم صوتها المزعج لكن ما به من رتابة تنقلني إلي عالم ساحر جميل ، إنه عالم الطفولة الجميلة والتي تمتعت خلالها وفيها التقيت بالحبيبة والصديقة "سارة" ، كنت أشعر بأن سارة ابنة خالة لي ولم أكن أتخيل ان الأيام سوف تفرق بيننا وتعمل علي التباعد والفرقة بل وصل الأمر إلي الكره والعداوة والبغضاء.

إنني في دهشة لما تم ، كيف يُصبح أحباء الأمس وعلي مدار سنوات من أيام الماضي الطويل ومن عمر المصريين أعداء اليوم وأن تنخلع فئة من أبناء مصر لتهرب إلي خارج البلاد حاقدة علينا وعلي أهل مصر وتنضم تحت لواء الدولة المجاورة بالحدود الشرقية والتي خُضنا معها حربين خلال ثمانية عشر عاما.

أتذكر حينما كنت أختلي بـ "سارة" نتهامس بحديث رقيق ناعم يخصنا نحن الفتيات عن فتي الأحلام ويتطرق حديثنا إلي الزواج وتطير بنا الأفكار وتعلو الآمال محلقة في سماء صافية بعيدة عن غيوم الساسة والفرقة ، كانت أحلاما جميلة وأمنيات أرق من جناح فراشة تهيم حولنا ونحن جلوس ، أتساءل كيف يمكن أن نلتقي لو تم زواج كل واحدة منا واستقرت في مدينة تبعد عدة كيلومترات عن الأخرى ، كان هذا هو السؤال المحير وتلك المخاوف التي كانت تثير في نفوسنا الكثير من الحزن ، نعود بعدها للضحك وتبادل إلقاء بعض النكات التي سمعتها أو سمعتها من بعض بنات المدرسة الثانوي التي كنا ندرس بها.

خلال المرحلة الثانوية استطاعت "هنادي" بأنوثتها و هدوءها ورقتها أن تجذب مشاعر ووجدان "طارق" إليها بينما كانت "سارة" تحاول التأثير علي مشاعره وأحاسيسه ، انا أعلم مقدار حب "سارة" للصديق "طارق" وكنت أعتقد أن هذا الحب زائل حيث اتجهت مشاعرنا أنا وسارة إليه أثناء لهونا ولعبنا سويا في جدول الري أثناء فترة الصيف التي تقضيها أسرته في عزبة كتكت ، كنا نمرح ونلهو فعقولنا أصغر من أحجام أجسادنا التي كانت تثير بعض المشاعر في النفوس أثناء اللعب والاحتكاك بين الأجساد دون تعمد.

خلال المرحلة الثانوية تبخرت مشاعري نحو "طارق" فلقد استسلمت إلي الحقيقة والواقع بأنه من نصيب "سارة" ولا داعي لأن أترك هذا الحب ينمو في قلبي وأنا أشاهد الواقع يخبرني بأنه لسارة وحبها يجري في دمه ، أصبحت

مشاعري مشاعر صديقة وزميلة وابنة بلدة واحدة ، لا أعلم سبب تبخر تلك المشاعر والأحاسيس؟ هل بسبب مشاهدتي له أثناء حديثه مع "هنادي" وشعوري بأن "هنادي" كانت تشعر بسعادة حين مشاهدته وتسرع إلي لقاءه مقدمة له قطعة من الحلوى في كل لقاء ، أعتقد أن سبب الفتور وعلاقة الاهتمام والانجذاب جهة "طارق" ترجع إلي اختلاف الديانة فلم أسمع أو أشاهد بأن أحدا ً من ديانة أخري قد تزوج من خارج ديانته ، كانت العلاقة بين الشباب والشابات متعددي العقيدة بمصر مثل العلاقة بين شباب من الجنسين بأسرة واحدة فلا يفكر شاب في إقامة علاقة مع الشقيقة والشقيقة هي الأخرى لا تفكر في هذا التفكير.

أشعر بأن عادل قلادة زميلي بالفصل الدراسي يتقرب إليّ من حين لآخر ، بدأت أشعر بهذا حينما استوقفني ذات مرة أثناء سيري مع سارة متسائلا ًعن نص قرأه في كتابنا المقدس الإنجيل ويرغب في زيادة التوضيح ، أوضحت له طبيعة النص والوقت والغرض الذي جاء ذكره لهذا النص ، قدم لي شكره وبعد أن غادرنا وسار قليلا ضحكت "سارة" واقتربت تهمس في أذني بأن (الواد واقع في حبك !!) نفيت هذا ولكنها أعادت ضحكاتها ُمعلقة بأنني حتي الآن "عبيطة" ولا أفهم شيئا في أمور الحب.

تعددت اللقاءات وأصبحت حججه واهية وأصبحت أفكر في عادل بل وصل الأمر إلي أنني بادلته الابتسامة والكلمة الطيبة الرقيقة وخلال هذا كانت تغادرني حالة عبوس الوجه التي ُكنت أضعها قناعا علي وجهي حين يقترب

مني شاب راغباً في مغازلتي ، تأكد لي حسن استنتاج "سارة" وأنها تعلم أكثر مني في مجال الحب والعواطف ، كنت حين ألتقي بعادل أثناء فترة الراحة من الدراسة "الفسحة" أشاهد "سارة" تبحث عن "طارق" وإذا شاهدته يحادث "هنادي" كانت تقطع عليهم حديثهم وتدخل في حوارات معهم تبعدهم عما كان يتحادث فيه الشابين مما كان يكدر صفوهما وفي بعض الحالات تغادر "هنادي" المكان تاركة "سارة" تستحلب وقت السعادة من حبيبها "طارق".

أصبح "عادل قلادة" يشاركني الأفكار والتنهدات التي تخرج من صدري بعد دخولي السرير وكنت أخشي افتضاح أمري أمام "سارة" فأنا أعلم أنها ثرثارة ولا تخجل من التحدث في موضوعات الحب والعشق كما أنها كانت تنهي تلك الأحاديث بضحكة ماجنة مرتفعة الصوت مخالفة بذلك الأعراف المتوارثة بأن ضحك المرأة بصوت مرتفع يعتبر عورة وأنا لا أعلم معني كلمة عورة ولكنها تعطي معني بين الناس بأنها من التصرفات السيئة أو المعيبة.

مازلت أفكر في عادل: هل هو مناسب لي؟ أشعر بأن الإجابة علي هذا السؤال ليست محددة لأن السؤال ليس محدد المطلب ، ماهى أوجه الشبه التي يجب أن تتوافر في هذا الشاب ليصبح مناسبا لي؟ لا أعلم ولكن المعلومات الدقيقة والعلمية توضح بأنه أكثر من مناسب ، فوالده حلمي قلادة رجل من رجال التعليم ويقوم علي تدريس مادة اللغة الإنجليزية بالمدرسة الثانوي كما أنه يمتلك بعض الأفدنة الزراعية كما أنه أصبح من مساعدي رجل الدين المسيحي

بالناحية ويكثر من تقديم الدعم المادي والمعنوي إلي الكنيسة ومساعدة فقراء الأقباط بالمديرية.

أما عن "عادل" فهو شاب أنيق يميزه بطيء الحديث أثناء الحوار فتخرج الكلمات من فمه واضحة محددة كما أنه لا يندفع في مهاترات لفظية وكلامية من التي تحدث دائما بين الشباب حين التعرض للأمور السياسية التي تمر بها البلاد ، كان واضحا أمام الجميع بأنني وعادل نقترب كل يوم بوصة طولا في مسابقة تكليل حبنا بالزواج فالمسألة كانت مسألة وقت بعد إن استقرت عواطفي وتربع "عادل" بحجرات قلبي.

لقد سكنت ماكينة طحن الغلال وسوف يحصل العمال علي راحة لمدة ساعة يتناولون خلالها غذائهم يتبعونها بتناول الشاي وحجر المعسل الموجود في أعلا الجوزة التي دائما هي رفيق حياتهم.

شعرت بأنني مخدرة رغم حرارة طقس الصيف فإن نسمات الهواء الرطب التي تهب علي جسدي من حين لآخر وأنا مازلت أجلس أسفل شجرة الكافور التي تظلل موقع ماكينة طحن الغلال فتعمل علي شعوري بالراحة ولذا فأنا أشعر برغبة قوية للنوم وإلقاء جسدي المخدر علي السرير وأتمتع بهدوء وسكينة بعد المعاناة التي لاقيتها منذ شهرين خلال فترة الاختبارات وما تلاها من فترات انتظار لمعرفة نتيجة هذا الاختبار وها قد ظهرت نتيجة ما كنت أنتظره منذ أكثر من شهر والآن أجلس ساكنة في انتظار قرار التعيين وكل ما

حصلت عليه حتي الآن بعد دراسة خمسة أعوام من الكد والجهد هو لقب الطبيبة بشري أو الست الدكتورة.

لم اعد أشعر بأي شيء حولي فقد ترنحت رأسي التي أستند بها علي جذع شجرة الكفور ورحت في سبات ولا أعلم الوقت التي قضيته ولكنه وقت ممتع علي كل الأحوال ولم تفارقني سعادتي تلك سوي ُمكرهة علي صوت نداء أمي التي أفزعت نومي الهادئ.

رغبت في النهوض للقائها ولكنها استمرت في القدوم جهتي وأنا بدوري كنت في حالة من الخمول والكسل فظللت علي حالي بينما ظهرت الابتسامة علي وجهها الرقيق وقسماته الدقيقة مما أضفي علي بشرتها البيضاء اللون الأحمر فأصبح ورديا يعكس البهجة والمتعة للآخرين.

بكف يدها الرقيق ناولتني مظروفا وعلقت قائلة " الجواب ده جا لك من حبيبتك سارة بنت عمك ناحوم .. كانت أيامهم حلوة وإلا أمها كانت ست طيبة .. إيه زمن" غادرت أمي المكان بعد أن سلمتني هدية هذا اليوم ، إنه خطاب من سارة الغائبة عن العين والساكنة بالقلب لهو أسعد شيء أحبه وأتمناه ولولا ضيق الوقت لخططت لها العديد من الخطابات.

قربت الخطاب من أنفي فاشتممت رائحة عطر "سارة" كأنها ترسل بخطاب إلي حبيبها وليس إلي صديقتها ، أدهشني تصرفها هذا والذي سبق وأن تكرر وقد سألتها في أحد خطاباتي عن معني هذا العطر الجميل التي تعطر به ورق الخطاب وكانت إجابتها لغزا حيث قالت: من أجل من أحب أرسل إليكِ بقطرات

من عطري بعد أن سكبته علي بشرتي لتختلط بها وأبثها إليك فقد تشاء الظروف والأقدار أن يقترب منك من أحب أن يشتم رائحتي فتصبح رسالتي إلي من أحب عن طريق الشم مخالفة طباع البشر بأن رسائل الحب تتم بالعيون وفي بعض الحالات بالآذان.

ضحكت ووضعت الخطاب بجواري وبخاطري اطلب من الله بأن يقبل "طارق" الآن ليتسلم رسالة حب من الصديقة "سارة" ، مازلت ابتسم من خرافة وسذاجة فكر "سارة" التي ظلت علي وهمها بحبها لطارق الذي أوقعه حظه الحسن بين ثلاث حسان سواء سارة أو أنا أو هنادي رغم أنه لم يحدث بيني وبينه أي نوع من آثار الحب التي تحدث بين الشباب ولو ركز طارق معي بعضا من وقته أعتقد بأنني لم أكن أستطيع الهرب من نظراته الرقيقة ومشاعره النبيلة كما أنني كنت احترمه واقدره حق قدره حينما كنت أشاهده مواظبا علي عبادته سواء بالصلاة أو بالتلاوة بكتابه المقدس.

الآن سأفض ظرف خطاب سارة لأقرأ بعضا من عبارات المغازلة التي ترسلها لي كي أقوم بتوصيلها لمن ترغب .. أسمع صوتا يحدث أمي ، يجب عليّ أن أخفي هذا الخطاب .. هذا المكان جيد بداخل جيب سترتي فلن يشاهده أحد ، أشاهد أميُ مقبلة مرحة سعيدة لتخبرني بأن الثلاثة علي موعد ولم أستطع تفهم عبارتها إلا حينما شاهدت ظل "طارق" يتبعها ، آه يا ربي .. أشارت إليه أمي ثم غادرت المكان لتعد لنا مشروبا.

لم يسبق لـي أن شعرت بمثـل هذا الـشعور مـن قبـل ، ظللـت جالـسة علـي وضعي ولم أغيره أو أبدلـه نظـرا لقدوم "طـارق" حيث كنـت أمـدد سـاقاي إلـي الأمـام وقـد تعـري نـصفهما والابتـسامة علـي وجهـي ، لا أعلـم الـسبب فـي هـذا التصرف؟ هل كنت في حالـة من الرومانسية الشديدة بسبب تذكري لعـادل قـلادة وسارة حبيبتي؟ لا أعلم ولكن الذي حدث أن أقبل عليّ طارق وجلس قريبـا منـي بعد أن صـافحني وربت علي كتفي محاولاً إثـارة غيظـي وحنقـي منـه بـأن أثنـي علي جمالي وخاصة ساقاي ، كان يعلم بأنني أنشد وأبغي الاحتشام ولـهذا رغب في مشاكستي ولكنني لم أتضايق أو أنفعل بل ظللت علي وضعي بل عملت علي إثارته أكثر مما سبق فنظـر إلـي مندهشا ومتـسائلا: مالـك يـا بـت يـا حلـوه؟ أنـت النهاردة موردة وزى العسل بس لو مش بـ أعتبرك أختي كنت أكلتك أكل!!

أثارت تلك الكلمات مشاعري ولهيب الشباب فـي قلبـي نحـو الطـرف الآخـر وشعرت بمدي ما تقاسيه سارة مـن حبهـا ولهفتهـا علـي طـارق ، لـم يكـن طـارق بالفتي الساحر من الناحية الوصفية ولكنه كان يمتلك قلبـا كبيـرا حساسا كمـا أنـه كان خادما للجميع ورغم مغازلته لـي ولسارة ببعض الكلمـات الواضـحة إلا أنهـا لم تكن تخرج عن نطاق العبث واللهو مثل ما كنا نتصرف ونفعل في قناة الري بأرضنا الزراعية.

أمسكت بكف يده وأشرت إليه بأن يركن ظهره بجـواري علـي جـذع شـجرة الكافور ، رفض متحججـا بأنـه بوضـعه الحـالي يتمتـع بإمعـان النظـر إلـي سـاقي الجميلتين ، دفعته فـي صدره فضحك لـهذا ثـم اقتـرب منـي وجلس ملاصـقا لـي

فقربت من أنفه ظرف الخطاب القادم من سارة ، نظر إليّ ثم نظر إلي الخطاب وعلم أنه من سارة ، ضاعت كل بسمة ضاحكة علي وجهه وألقي بالخطاب بجواري وأمسك بيدي ووضعها علي صدره وخرجت بعض دموع من عينيه كانت شديدة فقد تغير لون عينيه باللون الأحمر ، اقتربت منه أهدهد علي صدره بأن لا ينفعل ولا يغضب ولكنه لم يستجب لي بل ازدادت دموعه وبدا أن بكاءه سوف يصاحبه صوت نحيب ، اقتربت منه أكثر واحتضنته ووضعت رأسه علي صدري ، كان رافضا راغبا في البكاء أمام الجميع ، استسلم ووضع رأسه بداخل صدري، شعرت بأن الفتي ينشج بدموعه وكانت دهشتي عظيمة فلم أكن أعلم أن ذكري "سارة" سوف تفعل به هذا وتدفعه إلي كل هذا الحزن،

خرج من عباءة صدري محاولا تجفيف عيناه وأعاد قبضته علي يدي بطريقة رقيقة محدثا إياي: (بشري .. أنت وسارة أحب ناس ليا .. مش ح تصدقي أنا بأحبك أنت وسارة إزاي) .. لم أكن أتوقع إننا سوف نفترق عن بعضنا رغم أني أعلم بأنه سوف تجد بعض الظروف والمتغيرات من زواج كل طرف منا بشخص آخر فلا يجوز الزواج بيننا نحن الثلاثة ولكن الحب بيني وبينك وبين سارة حب الصداقة والإخوة وليس حب فتي وفتاة فأنا أجلس بجوارك سعيدا بصديقتي ومن لحظات كنت أغازلك مازحا حتي تنهضي وتقومي بدفعي بل ضربي مثل ما كان يحدث بيننا .. لقد وضعت رأسي بداخل صدرك .. لقد كان قريبا من صدر أمي!!

دفعته في كتفه محتجة بأن هذا الصدر في بداية عمره فهل يماثل صدر أمك أيها العبيط عديم التمييز؟ لم يغضب ولكنه قال يماثل في المعني والمفهوم ولكن في المادة والجوهر فهو شيء عالي القيمة يزيدك بهاء وجمالا ، سوف انهض فلقد تكررت ذكري سارة وكنت قادما لأخبرك بشيء ما ثم تنبه وأعاد مشاهدته لظرف الخطاب وقربه من أنفه فاشتم رائحة سارة المميزة له أيضا فضحك لهذا قائلاً: فهمت كلمة مامتك من شوية .. أنتم التلاته اجتمعتم .. ياه يا سارة لك وحشة يخرب عقلك لو كانت فضلت معانا كنا نصبح تلات عائلات صديقة لكن حنعمل إيه في الزمن؟

نبهته قائلة: لقد أتيت بغرض ما فما هي حاجتك؟ أخرج مظروفا مطويا ذا لون أصفر من جيب قميصه وقدمه لي قائلاً مبروك التعيين ، لم أصدق ما قال ومن كثرة سعادتي قفزت عليه محتضنة إياه بل قبلت خديه سعيدة .. شاهدت أمي تحمل صينية وعليها بعضا من أطباق الفاكهة ، اقتربت قائلة: أنتم كبرتم علي الحاجات دي ، أنتم فاكرين نفسكم لسه عيال؟ بكره تتجوزوا وتخلفوا!!

تضاحكنا من توجيه أمي لي ولطارق وظللت جالسة ملتصقة به وأنا أفض ظرف الخطاب الذي ذكر بداخله بأنه قد تم تعييني صيدلانية مبتدئة بالمستشفي العام في بمستشفي بولاق أبو العلا.

علمت من طارق بأنه عرج علي مكتب البريد لإرسال خطاب مُسجل إلي القاهرة وهناك التقي بمدير مكتب البريد الذي أظهر له الخطاب قائلا "جواب يهمك بتاع قريبتك!!" تسلم منه الخطاب وأتي إلي مباشرة .. أضاحكه .. صحيح

إحنا قرايب؟ يبتسم لي ابتسامة الطفولة التي أصبحت هي كلمة السر بيننا نحن الثلاثة والتي نعرف معني كل همسه وبسمة لا يعلم عنها أحد سوانا مجيبا بأننا قرايب فعلا فالإسلام عندما أتي مصر لم يفرق وهنا دخل الدين الجديد البعض ورفضه البعض والجميع من أبناء مصر.

نتناول الفاكهة ونتحدث حديثا هادئا يغلب عليه همسات الرمز المصرية والابتسامات الراقية المخلصة مما دفعني لأن أخلد في نومي أسفل شجرة الكافور وأجعل من ساق طارق وسادة رأسي وما زلنا نتحدث حديثا كله بهجة وسعادة رغم ذكري سارة التي كانت تثير الأحزان بيننا لسفرها وفقدنا صديقتنا التي كانت قريبة منا ومازالت تسكن في قلوبنا.

طـــارق

خلوت بنفسي بحجرة بمنزل جدتي التي قمت علي زيارتها هذا اليوم حاملا معي بعضا من أغراض طلبتها من أبي وأمي كما أحمل معي بعض النقود أرسل بها أبي إليها مثل كل شهر للإنفاق علي نفسها وعلي عمتي الأرملة والتي توفي زوجها منذ بضع سنين وليس لها معاش تتعيش منه ، لقد تركت بشري منذ حوالي الساعة وأنا مازلت أفكر فيما حدث ولم أصل إلي نتيجة ما ومازال هناك سؤال يتردد في عقلي .. إيه حكاية سارة وبشري وهنادي .. ثلاث فتيات جميلات لكن أين موقعي منهن ومن هي صاحبة النصيب.

كانت الإجابة واضحة وسهلة .. بكل بساطة لن أستطيع الارتباط بكلٍّ من بشري أو سارة لاختلاف العقيدة وهذا الاختلاف عنصر هام وفعال في إفشال أي خطة للزواج بين أصحاب العقائد والديانات المختلفة خاصة في مصر ، وبالتالي سوف تكون صاحبة النصيب هنادي والتي حادثت أبي للارتباط بها وأنا مازلت في انتظار رأي أسرتها بطلب التقدم لمصاهرتهم..

إذن أين تكمن المشكلة؟ أعتقد أن المشكلة تنحصر في تعلقي بحب وصداقة مرحلة الطفولة!! هل يعقل هذا أيها الشاب المثقف بأن ترتبط بإنسانه وتهوي اثنتين لأنك كنت صديقا لهما أثناء مرحلة الطفولة والصبا؟ هل يعقل هذا وهل تقبل علي نفسك أن تشاهد أصدقاء طفولة هنادي يتصرفوا مثل تصرفك الصبياني هذا؟ لا أعتقد أن هذا تصرف صائب فيجب عليّ أن أعلم أنهن

أصبحن ناضجات وسوف يقبل عليهن صاحب النصيب بل أنني أعلم بأن بشري وعادل قلادة في طريقهما إلي الزواج.

كما أن سارة هي الأخرى أصبحت خارج الوطن ولهذا فلا داعي لإحداث مشاكل قد تعصف بالحب والمودة التي تجمعني بهنادي خاصة أنها تحمل كل الشكوك والريبة من جهة علاقتي بسارة ودائما ما تثيرها تلك الذكريات بل أنها ظلت متحفظة بعلاقتها بى حتي علمت بأن سارة هاجرت مصر إلي الخارج ولن يعود شبحها مسببا لها الكثير من المشاكل والاضطراب.

مازلت أشعر بحنين لهاتين الصديقتين ولن تمحو ذكريات السنوات التي تعدت العشر بيننا وقد تم اجتماعنا سويا خلال سبعة أعوام متتالية أثناء الدراسة بالمرحلتين الإعدادية والثانوية والإقامة مع أسرتي رغم إنني خلال تلك الفترة كنت انظر إليهما بأنهما مثل بعض أصدقائي من الشباب.

هذا هراء .. كيف أقول عنهما أنهما مثل الشباب؟ هل هذا الجمال وتلك الفتنة الرائعة التي تتمتع بها الاثنتان تماثل خشونة الصوت والملمس لأصدقائي بالدراسة لا أعتقد هذا؟ ماذا أفعل هل أظل علي عهدي بالصداقة معهما أو أبتعد؟ أعتقد بأن الابتعاد عنهن سوف يؤثر علي مشاعري كثيرا فأنا أشعر بالأمان حين ألتقي بأي واحدة منهما كما أشعر بأنهما سوف تقفان معي حين تقابلني أي مشكلة لا أستطيع تجاوزها أو العثور علي حل مناسب لها ، رغم أن سارة خارج الوطن لكني أشعر بأن روحها وقلبها يرافقني أثناء حدوث بعض المضايقات في العمل أو في الحياة عامة.

لا أستطيع فك ُعري تلك الصداقة ويجب عليّ أن أقود مركب حياتي بحكمة والا أجعل رياح الغضب والغيرة تمزق الشراع حتي أصل إلي شاطيء الأمان كما أرغب دون إحداث أي خسائر أما عن شاطيء الأمان بالنسبة لي فينحصر في حب هنادي واستمرار صداقتي بكلّ من بشري وسارة ، آه علي تلك الصداقة حيث كنت أعتقد أنه قد علاها الصدأ لتباعدنا لفترات طويلة ولكن حين توجهت إلي منزل عمي "تاناس" وسمعت صوت ماكينة الطحين وشممت رائحة الدقيق المطحون عادت إليّ كل الذكريات الجميلة التي قضيتها بين جدران وفناء هذا المنزل وعادت بى الذاكرة إلي ما كنا نقوم به من لهو ولعب ونحن أطفال ولم نبلغ الُحلم بعد.

لا أستطيع إغفال صداقة الطفولة وأنا أعتبرها مثل ُحب أمي وأخوتي ولا يجب الخلط بينهما وبين الزواج وحب الزوجة ، أشعر في بعض الأحيان بأن رأسي فارغة ويجب عليّ أن أستشير بشري فهي الصديقة الباقية هنا وقد غادرت البهجة حياتنا بعد سفر سارة ، يجب أن أسأل بشري نفس الأسئلة التي أطرحها علي نفسي الآن لعلها تستطيع أن تقدم لي يد المساعدة والحل ولن أغضب من أي وجهة نظر تقترحها عليّ لأنني أعتبرها مثل نفسي.

****

في مساء نفس اليوم غادرت منزل جدتي متجها إلي لقاء بشري وقد عم الظلام شوارع القرية المتربة فكنت أسير بحذر حتي لا يغبر حذائي وأصبح أمام بشري بشكل منفر ، ها قد اقتربت من منزل عم "تاناس" ويجب أن أختلي

ببشري حتي تظلل الصراحة والوضوح لقاءنا .. أسمع جلبة وضوضاء بالمنزل .. أتساءل ما وراء تلك الجلبة .. أدق بمطرقة الباب الحديدية والتي تشبه يد إنسان مكمورة وبين أصابعه كرة من الحديد حين رفعها والطرق بها علي قطعة أخري من المعدن تحدث صوتا يهرع إليه أصحاب الدار إعلانا بقدوم زائر.

أحد الجيران المتواجدين بالمنزل للزيارة نهض وفتح لي الباب ورفع عقيرته يعلن للقوم شخصية من حضر "طارج أفندي أبو اسماعين" ... شاهدت غرفة الاستقبال وبها العديد من الجيران وبشري تجلس وهي ترتدي أحلي ثوب شاهدته عليها ويجلس بجوارها عادل قلادة الذي نهض مرحبا بى ومعانقا وبأنني وش السعد الذي أحضرت لها خطاب التعيين للعمل ، صافحت الباقين ومن بينهم والدا بشري ، استمر الحديث بين الزائرين القادمين للتهنئة وتناولنا شراب الورد أحمر اللون المثلج وغادر البعض المكان كما أقبل البعض ، كنت أشعر بأن بشري تنظر إلي نظرات ذات مغزي وكنت أجيبها بنفس النظرات التي أصبحت متبادلة بيننا دون مراعاة مشاعر الآخرين ، كانت نظراتي تدل علي أنني أحمل شيئا ثقيلا طالبا منها مناقشتي فيه.

نهضت معتذرا ومغادرا المنزل فقد جلست فترة طويلة وأصبح الوقت غير ملائم للأمر الذي قدمت من أجله ، ألحت عليّ بشري بأن أظل جالسا خاصة أن عادل كان راغبا في مغادرة المنزل حيث ما زال أمامه سفر ليعود إلي بلدته ويجب عليّ أن أظل متواجدا لاستقبال المهنئين وقد أيد عادل تلك الرغبة ، رضخت لمطلب "بشري" ونهض "عادل" مصافحا وغادر المنزل وتبعته

بشري حتي باب المنزل وصافحته مودعة وعادت تجلس بجواري ، بعد قليل خفتت حدة أعداد المهنئين حتي انصرف الجميع ، نهضت أم بشري تجرجر ساقيها من فرط التعب والإرهاق والاستقبال بينما نهض الخواجة "تاناس" قبلها بقليل بعد أن حضر ملاحظ الماكينة راغباً في إغلاق حسابات تشغيل الماكينة عن هذا اليوم.

أصبح الجو خاليا أمامي ، أما عن "بشري" فقد زادت من التصاقها بى وهي ترنو إلي متسائلة: (أكيد بتقول البت دي مجنونة وعارفه أنني خاطب هنادي وهيا علي وشك خطبتها من عادل وليه بتعمل كده؟)

ابتعدت قليلا حتي أشاهد ما يعتمل علي بشرتها الجميلة ُمحدقا النظر بها متسائلاً: لقد أتيت إليك بغرض سؤال واضح ومحدد وأرجو أن تجيبني عليه ، وضعت يدها علي فمي بغرض منعي من الحديث واقتربت مني ثانية ووضعت رأسها بجوار صدري وهي ُتسلط نظرها أرضا ، شعرت بأن مشاعرها هدأت وظلت علي هذا الحال ثم رفعت رأسها ونظرت إليّ فشاهدت الدموع بعيونها الجميلة وُدهشت لهذا فهذا يوم جميل ومنذ دقائق كان المنزل يغص بالمهنئين فلماذا البكاء .. أتساءل بإشارة من عيناي ماذا جري تجيبني بأن تعيد التصاقها بى وهي تردد:

- "خايفه يا طارق .. لو كل واحد فينا أجوز مش ح يقدر يشوف صاحبه ، تعرف أن سفر سارة أثر فيّ قد إيه كمان خايفه أن عادل يعمل ليا دوشه لما يلاقيني مهتمة بيك والله أنا بأحبك زي أخويا مع زيادة حبتين بنوع الصداقة

والصراحة ، لو فقدت صداقتك مش ح تفضل قدامي أي صداقة ، كل حياتي وأسراري" أنت وسارة.

ـ ده اللي أنا كنت جاي أسألك عنه .. أنتِ بتحبيني زى أخوك؟ وأنا برضه بأحبك زي أختي ومش ح أقدر أبعد عنك لكن خوفي أن هنادي تغضب مني وعادل قلادة يزعل منك وإحنا بنحب بعض ونخاف علي بعض والناس لها اللي قدمها ومحدش يعرف اللي موجود بالقلب علشان كده لازم ناخد بالنا ومنخليش مشاعرنا تروح بعيد .. يعني لو دخل علينا عادل دلوقتي وشافك كده وأنتِ لازقه فيا حيقول إيه؟ فكره ح يروح بعيد.

جلس الصديقان جلسة مصارحة ومكاشفة وتنبيه وتحذير فقد نمت الأجساد والعقول وأصبح أمام كل طرف منهما من يرغب في الارتباط به ولهذا فيجب عليهما الحيطة والحذر واليقظة حتي لا يشعلان نيران الكره والغيرة لأصحاب الحق الأصلي فقد يغار الزوج من حب زوجته لشقيقها واهتمامها به فما بالك بالصديق.

وجه طارق إليها سؤالا: بشري شاهدتك وأنتِ تقرئين لي خطاب "سارة" ثم صمتِ لفترة ثم أكملتِ قراءتك ، ما السبب في توقفك؟ هل كنتِ تخفين شيئا عني لا ترغبين بأن اعلمه عن سارة؟

أبدا أخي وصديقي العزيز طارق لكن أنت تعلم أنه يحدث بين الفتيات حديث خاص يمس شئونهن ولهذا لم أفصح لك عن تلك الشئون التي تخصني وتخص سارة.

أشكرك عزيزتي بشري للتوضيح وسوف أنهض الآن لأعود إلي منزل جدتي فقد تأخر الوقت ولا أرغب بأن تظل هي وعمتي في انتظاري رغم أن فروح ابن عمي طلب مني أن أقوم علي زيارته وأنا مازالت مترددا.

طارق لا تنسي ما قام به ابن عمك وما صبه في رأسك وأنت طفل صغير من معلومات سيئة فاسدة عن البنات والنساء عامة وكاد هذا الأمر أن يفسد عليك حياتك ولهذا فالبعد عن أمثال هؤلاء ُيصبح من القرارات الصائبة خاصة أنه مازال يحدث بعض الفلاحين المتوجهين للجمعية الزراعية بغرض الحصول علي البذور والأسمدة بنفس الأسلوب الساقط البذيء والبعض منهم قد يكون مصطحبا معه زوجته أو ابنته وفروح هذا لا يفكر في شيء ولا ينتبه إلي أنه بحديثه الخارج عن الآداب والبذيء يصيب مشاعر تلكم النسوة.

أصدقك القول وسأعمل بنصيحتك ولأعود إلي منزل جدتي مباشرة وباكر سوف أتجه للقاهرة حيث عملي الذي أعشقه وأجيده .. وداعا يا عزيزتي وإلي لقاء قريب.

****

بعد أن غادر طارق منزل بشري جلست الفتاة في ركن الحجرة وقللت من ضوء لمبة الكيروسين وسبحت في ذكريات هذا اليوم المشحون ، تنبهت إلي إنها قد أخفت الحقيقة التي قرأتها بالخطاب والتي أرسلت بها "سارة" وهي تخبرها بأنها لم تنس "طارق" الصديق والحبيب بل إنها علي أتم الاستعداد للعودة إلي مصر لو وافق علي الزواج بها!!

لقد أصبحنا نحن الثلاثة نتخبط في علاقتنا وهل هي علاقة حميمة وشريفة أم أنها غدت علاقة فاسدة قد تضر بنا وتعكر صفو مستقبل حياتنا؟ سوف أظل علي عهدي مع "طارق" أعامله معاملة الأخ والصديق ويسعدني أن أراه من حين لآخر وسوف تزداد علاقتي به بعد زواجه من "هنادي" وزواجي من "عادل" وبهذا تزداد دائرة الصداقة وتقوي عري المحبة بين الأسرتين الصغيرتين.

هنـــادي

لا أستطيع النوم بعد أن وصل إلي سمعي من حديث هامس بين أبي وأمي بأن والد طارق تقدم رسميا إلي والدي بطلب يدي إلي ابنه طارق ، لقد كان وقع الخبر عليّ شديدا ، كدت أصرخ من شدة الفرح والسعادة ، فهذا الشاب التي اختبرته لسنوات طوال أثناء دراستنا والذي كان يأتي معي ليستقل المراجيح الموجودة بحديقة القصر ونلهو معا وأمي تمدنا بالحلوى من حين لآخر ، هذا الشاب أعمي عيناي علي أن أري أو أشعر ببعض الومضات المرسلة من شباب العائلات الثرية والتي كانت تربطهم بأسرتي علاقات قربي ونسب ، لقد تاه نظري عن الجميع وأصبح ُمسلطا علي ما يقوم به طارق رغم تواضع حالته المادية ولكنه يمتلك أبا وأما أصبحا مضرب الأمثال في الخلق الكريم وُحسن التعامل مع جميع العائلات.

لقد وافقت أمي علي طلب والد طارق بينما أجل أبي في إعطاء الموافقة حتي يحصل علي موافقتي ، لقد سمعت ضحكات أمي وهي تبلغه بأن هنادي ترغب هذا الشاب ولكن أبي لم يستمع لحديثها مؤكدا بأن عليه اتباع الشريعة وأن تعطي العروس رأيها في الشاب المتقدم لطلب يدها والزواج بها ولابد من أن أسمعها من حبيبتي الصغيرة هنادي.

شكرا أبي .. شكرا أمي بارك الله فيكما وأنعم عليكما بالصحة والسعادة ، نعم يا أبي .. قلبي يعطي موافقته وبركته لطلب هذا الشاب ، إنني أسعد به وبحديثه

وضحكاته الطيبة البريئة فهو شاب نقي لم تلوثه ألاعيب البشر الفاسدة بل كان محط إعجاب الكثير من الزملاء وبعض الزميلات.

آه علي الزميلات ، إنني أخشي عودة سارة فهي المنافس القوي لي علي حب طارق ، إنني أخشي تلك الفتاة فهي جميلة ومثيرة لأي شاب يراها خاصة أنها وضعت طارق نصب أعينها وسلطت عليه سحر أنوثتها وأعتقد بأن شاب آخر غير طارق لما استطاع الصمود أمام إغوائها وإثارتها ولكن طارقاً كان صلبا ويجاري حديثها بالضحك والمزاح البريء.

إنني أعلم أن كلا من طارق وبشري وسارة تربطهم علاقة قوية من الصداقة رغم اختلاف الديانة بين الثلاث وأعلم أن بشري تشعر بطارق ولكن علي أساس أنه صديق وأخ لها ولكن الخوف كل الخوف من سارة ، ماذا أفعل لو تبدل الزمن وأقبلت سارة وعادت من سفرها وقد أصبحت طبيبة لها الكثير من الرونق الاجتماعي والأدبي ، هل أستطيع أن أواجهها وهل يستطيع طارق أن يصمد أمام إغوائها وقد تمرست علي الحياة الأوربية وأرتقي سلوكها وتُحسن اختيار ملابسها المثيرة مثل ما كنت أشاهد في الصحف والمجلات عن تقدم الدول الأوربية؟

سوف أضع عفريتا أمام حياتي في المستقبل ولا يجب علي أن أبدأ حياتي بتلك الشكوك ، مازالت أسمع حتي الآن البعض من زميلات الدراسة وهن يثنين علي جمال وفتنة سارة وما كانت تحركه من هوس لدي الشباب سواء لأناقتها أو فتنتها بل أن البعض يعتقد بأن طارقاً له علاقة ما بسارة مما كان يشعل نار

الغيرة في قلبي رغم تأكدي بأن هذا لم ولن يحدث فلن يقبل والداه بأن يصبح ابنهم خارجا عن تقاليد المجتمع وتعاليم الإسلام كما لن يقبلا أن يرتبط طارق بفتاة يهودية وما نعلمه جميعا عن هؤلاء القوم وما قاموا به من تعذيب لأبناء فلسطين وطردهم من ديارهم وارتكابهم للمذابح الوحشية ، لقد تعدي الأمر بما فعلوه مع الأسري من الجيش المصري خلال حربي ١٩٤٨ و١٩٥٦ من تعذيب بل قتل الجنود بعد الاستسلام.

رغم سعادتي فإنني أشعر بخوف من المجهول ومن تلك الفتاة ، ماذا أفعل؟ أريد النصح والإرشاد ولن أستطيع أن اصب مخاوفي تلك لأمي مما يدفعها إلي إيقاف عجلة السعادة التي بدأت في الدوران منذ ساعات قلائل حينما أتي والدي حاملا خبر تقدم طارق إليّ رسميا ، من يا تري يستطيع أن يمنحني النصيحة الغالية ، آه إنها بشري صديقة كل من طارق وسارة وأنا أحترم رأيها فهي عاقلة ومتزنة ومتمسكة بتعاليم الدين المسيحي.

صباح اليوم التالي سمعت من يهمس في أذني قبيل تناول طعام الإفطار .. (صباح العسل الأبيض والقشدة الطازة) ، تنبهت علي صوت والدي فنهضت محتضنة إياه ، قبلني قبلة الصباح الذي دأب منذ فترة علي أن يقتطفها مني كل صباح كما كان يحلو له أن يقول أمام إخوتي وأصدقاءه.

جلس قريبا مني وفاتحني فيما حادثه به إسماعيل أفندي والد طارق ورغبته في التقدم إلي ، رغم إنني سمعت الخبر أمس بطريقة غير مباشرة إلا إنني كنت

تواقة لأن أسمعه مرات ومرات سواء لشعوري بالسعادة أو لكي أتأكد من صحة ما يقال.

أجبت أبي بقليل من كلمات وأنا في حالة من الكسوف والحرج بأن طارق شاب متميز ولا غبار عليه .. ضحك أبي من حديثي قائلا بأنه سوف يبلغ إسماعيل أفندي بموافقة أسرتنا علي طلب ابنه طارق .. قفزت من مقعدي صارخة مقبلة أبي الذي خشي أن أسقطه من فوق الكرسي من شدة فرحتي وسعادتي العارمة والتي جعلت والدتي تقبل تسير الهوينا متكئة علي عصاها مستفسرة عن أسباب تلك الضوضاء وحينما شاهدتني وشاهدت أبي علمت بما حدث فأقبلت عليّ تقبلني ناثرة عليّ أرق عبارات التهنئة مشفوعة بكلمات رقيقة عن الزواج السعيد.

مساء كنت متجهة إلي منزل خالتي القريب من القصر فالتقيت بعادل قلادة الذي أخبرني بأن صديقتنا بشري تم تعيينها بأحدي مستشفيات القاهرة وأنه كان في زيارتها بالأمس ليقدم تهنئته لها والتقي هناك بطارق الذي كان في زيارة جدته لأبيه وتحدثا سويا ، شعرت بأن الذي يحدثني ليس عادل بل طارق ، ظللت استمع إليه سعيدة فقد التقي مع حبيبي طارق.

طلبت من سائق سيارة أبي الخصوصي أن يقلني إلي القرية التي تقيم بها بشري والتي لا تبعد عن قريتنا بأكثر من خمسة كيلومترات بعد أن تأكدت بأن والداي ليسا في حاجة للسيارة.

****

أمام منزل الخواجة تاناس المجاور لماكينة طحن الغلال أطلق السائق نفير السيارة فخرجت أم بشري تستوضح الأمر فشاهدتني واحتضنتني تقبلني وعندما علمت مني إنني قدمت اليوم لأقدم التهنئة إلي ابنتها بشري بالتخرج والوظيفة مما دفع بها إلي أن تنادي ابنتها والتي أقبلت مسرعة ، شعرت بسعادة غامرة لهذا اللقاء وتبادلنا العناق والقبلات والأحضان واصطحبتني إلي داخل المنزل.

جلسنا سويا بحجرتها وأغلقت بابها واقتربت مني تحتضنني وأعادت قبلاتها وأشبعتني بكلمات رقيقة تدل علي الحب والصداقة التي شملتنا أثناء فترة الدراسة ، قدمت لها تهنئتي للمرة الثانية وناولتها هدية رمزية من التي تعشقها البنات.

كنت في حيرة من أمري ، كيف أطرح عليها سؤالي والتي أبغي طرحه ومازالت جلستنا رقيقة فرحه وقد يؤدي سؤالي إلي ضيق في النفوس ، بعد قليل اقتربت مني بشري راغبة بأن تخبرني بشيء يحيرها ، أشرت إليها بأني منصتة لما تقول.

كانت مفاجأة لي وهي تحدثني عنها وعن سارة وطارق ولكنها ركزت في حديثها عنها وعن طارق وأنها تعتبره أخ غير شقيق لها وهل هذا قد يؤذي مشاعري ، كنت مازلت عند أفكاري السابقة بأنني لا أخشي بشري ولكن ما أخشاه هي سارة.

كانت إجابتي علي سؤال بشري مطمئنة وربتت عليّ سعيدة بأن تستمع لتلك الإجابة ، طلبت منها تفسيرا عن مدي علاقة طارق بسارة وأظهرت لها

مخاوفي خاصة أنه بالأمس تقدم والد طارق طالبا يدي لابنه وأنا ما زلت مترددة خوفا من الموافقة ثم بعدها يظهر لي شبح سارة مرة ثانية.

أيدتني بشري في مخاوفي ولكنها أظهرت حقائق الأمور التي كنت أجهلها وهي الحادثة التي كادت أن تفقد فيها سارة عذريتها علي يد عامل الماكينة وسلوك طارق أثناء ذلك وإنقاذه لسارة مما دفع بها إلي التعلق بطارق كأخ وحبيب وصديق ، مؤكدة بأنه يجب عليّ ألا أخشي سارة لأنها لن تستطيع العودة كما أن طارق يلاطفها ويداعبها مثل ما يفعل معي وكلها أمور ظاهرية وسطحية ولا يترتب عليها أي عواقب.

نعم بشري ولكن هناك خلافاً واضحاً بينك وبين سارة لأنني كنت أشاهد سارة تندفع في حديثها مع طارق وفي بعض الأحيان تهمس بأذنه بكلمات تعقبها ضحكة ماجنة كانت تضايقني وتثير اشمئزازي ، نعم هنادي هذا هو سلوك سارة المعلن ولكن الحقيقة أنها إنسانة يائسة رغم جمالها وسحرها الذي لا يستطيع شاب أن يقاومه بل نحن بنات جنسها تمنين أن نصبح في أناقتها وفتنتها ، الحقيقة أنها أصيبت بما يسمي "الفوبيا" وهي الخوف او المرض النفسي من جهة الرجال فلا تستطيع التحمل أن يقترب منها رجل حتي لو كان زوجها ولهذا فهي لا تجد في أي رجل الأمان والراحة النفسية سوي طارق الذي تربي معنا وتربينا بمنزله ثم هو المنقذ لها من براثن الذئب الآدمي "زناتي".

وضعت يدي علي فمي من شدة التأثر فلم أكن أعلم بتلك الحادثة ولهذا استطعت ترتيب حروف المشكلة فعثرت علي الحل وأنه لا توجد مشكلة بالمرة

وأن الموضوع لا يعدو سوي الحب والتقدير والعرفان بالجميل للذي تم ثم ما تلاه من إقامة وتربية وحياة جمعت بثلاثتهم في مكان واحد مما أثر بالطبع علي التعود والتقارب فيما بينهم.

بعد جلسة لم تدم طويلا شكرت بشري علي ما أوضحته ليّ واتفقنا بألا يعلم أحد بما قيل حتي طارق ولنكفي علي الخبر "ماجور" ولا داعي لإثارة البلبلة مرة ثانية وإعادة نشر حادث الاعتداء علي سارة فأنه شيء سيء.

مصـرنا الحبيبـــة

مـضى عـام علـى تخـرج طـارق وتقلده منـصبا بأحـد الـشركات وراودتـه المشاعر بأنه في أحسن أحواله ولم يكن يعكر صـفو حياتـه إلا تـذكره من حين لآخـر "صـديقته الـسابقة سـارة" سـواء حبـا ورغبـة أو لمحاولـة اغتـصابها من "زنـاتي" أما عدا ذلك فقد كـان ينظر الـى المستقبل بكل سـعادة وبهجـة خاصـة أن شقيقاته يخطـون بمراحل التعليم بتفوق كمـا أن شقيقه الأصـغر "احمد" التحق بالمدرسة الابتدائي منذ عـامين وهو فـى أحسن حـال وكـان احمد يمثل لطـارق حين يلقاه أثنـاء زيارته الى البلدة أكبر متعة ومكافأة فكـان يلاعبـه ويحملـه مقبلا إياه بسعادة بالغة ممـا دفـع بأمـه الـى الدعاء لـه بأن يتزوج وينجب لهـا الأحفـاد الذين يملئون عليها المنزل سعادة وصراخا ومشاغبة.

****

تمت خطبة الشابين طـارق وهنادي فى قصر والدها "وصفى" باشا بحضور العديد مـن الأعيـان والأثريـاء كمـا حـضره الكثيـرون مـن الـزملاء والأصدقاء للعروسين خاصـة "بشرى وعـائلتها" ويسرى أبو الدهب وعادل قلادة الذين كانـا بالقاهرة لقضـاء الأجازة الصيفية بمصر خلال توقف الدراسة بجامعـاتهم بأوربـا ، مـضـي علـي احتفـال الخطبـة عدة أشـهر كـان فيهـا الـشابين يـستعدان لتتـويج خطبتهما بالقران والزواج.

فى ليلة بهيجة جميلة غلفتها الاغانى والموسيقى الجميلة وأغاني الأفراح وبحضور المطربة الجميلة "مها صبري" أقيمت ليلة الزفاف للعروس "هنادى على العريس طارق" وبعد الاحتفال أقلتهما سيارة الباشا الى فيلته بمدينة بورسعيد لقضاء بضعة أيام.

صباح اليوم التالي جلس العروسان أمام البحر وخلفهم الفيلا وقريبا منهما الدادة تلبى ما يطلبانه منها من مشروبات وأطعمة خفيفة .. جلس العروسان ينظران الى بعضهما البعض وكل يهنئ نفسه بنجاحه وتوفيقه بالاقتران بالآخر ، طال الحديث القصير لأنه حديث الحركات والإيماءات ، تسأله "هنادى" ماهى خطتك للمستقبل ويجيبها بأنه غير راغب فى أن يشغل باله وفكره باى شيء وهي بجواره .. أسعدها هذا الثناء واستكملا حياتهما فى اللهو والمرح والسباحة واللعب فى المياه بين جموع البشر.

****

بمعاونة "وصفى باشا" وتفوق "طارق" وفق فى الحصول على وظيفة أكبر من الأولي بإحدى الشركات الصناعية التى تعتمد على خريجي كلية العلوم وتسلم عمله بالقاهرة وأنتقل للسكنى بإحدى الشقق المتطرفة بحى الزيتون قريبا من منطقة التجنيد ولم يمض على عمله هناك عام أو يزيد إلا وُطلب لأداء الخدمة العسكرية وبدأ مشواره في تلك الرحلة التى كان الشباب وقتها يشعر بالسعادة والفخر بأنه رجل حقيقي ولهذا ُطلب لأداء الخدمة ونجح فى الكشف

الطبي إذاً فهو شاب سليم معافى ولم يكن يضايق الشباب إلا المعاملة المخالفة لما تعودوا عليه في حياتهم المدنية وعدم الاهتمام بالنواحي الإدارية.

****

انتهى "عادل قلادة" من دراسته بجامعة لوزان بسويسرا وعاد الى أرض الوطن وبين فرحة عائلته وأصدقائه وأبناء قريته أعلنت خطبة كلٌ من عادل قلادة و"بشرى تاناس" وقد حضرها كلٌ من "طارق" وزوجته هنادى وتحدد نهاية عام ٦٦ لإتمام زواجهما بعد حصوله على وظيفة مناسبة بينما مضي عام كامل علي بشري وهي تعمل بمستشفي بولاق العام وبعد شهور قليلة حصل عادل على وظيفة محاسب بأحد شركات المحاسبة المرموقة.

****

نهاية عام ١٩٦٦ انتهي طارق من جميع الفحوصات الطبية والنفسية والتي تعقد للمتقدمين لأداء الخدمة العسكرية ، في بداية العام التالي أصبح ملازم مجند بالقوات المسلحة وبعد إنتهاء تدريبه فى كلية الضباط الاحتياط أتجه مع بعض زملائه الى مدرسة المدفعية للحصول على دورة تدريبية ليعمل كضابط احتياط بسلاح المدفعية المصري والذى كان معروفا عنه بأنه من الأسلحة التى لها جولات وصولات فى المعارك السابقة ضد العدو.

شهر مارس من نفس العام حصل طارق على الفرقة الأساسية لضباط المدفعية وتم إلحاقه على إحدى الوحدات بمنطقة "دهشور" العسكرية .. هناك أنضم الى سرية "الهاون" ١٢٠مم" والتقي بقائد السرية الذي شعر منذ الوهلة

الأولى بأن الذي أمامه رجل عسكري حقيقي رغم صغر عمره والذي كان برتبه "نقيب" ولكنه كان ُملم بالموقف السياسي للدولة والمنطقة وفي أحاديثه كان يؤكد للضباط الثلاثة الذين يعملون معه بأن المعركة مع إسرائيل قادمة لا محال وأنه لابد لنا أن نكون مستعدين للدخول فى الحرب فى أي لحظة .. كان طارق في دهشة مما يقوله قائده لأن ما يتحدث عنه مخالفا للحالة الهادئة التى تسيطر على منطقة الشرق الأوسط.

استقرت هنادى بقصر والدها بقريتهم حيث أن ظروف خدمة طارق غير مستقرة ما بين التدريب والخدمات خاصة أن بشائر الحمل بدأت ُتزهر أوراقها ولهذا كانت "برلنتي" هانم ترعاها لأقصى درجة فهى ابنتها الوحيدة ومن المتعارف عليه ان الأمهات تصبحن فى حالة من السعادة والبهجة ان يقمن على رعاية بناتهن الحوامل ولم يسبق لأم هنادى ان شعرت بهذا الشعور من قبل نظرا لأن أبناءها السابقين من الذكور.

****

من حين لآخر كانت "سارةِ" ترسل برسائل الى صديقتها "بشرى" على عنوان قريتها وحين تطالع بشرى تلك الرسائل كانت تشعر بحنين الى الماضي فقد عاشا سويا لأكثر من خمسة عشر عاما لم يفترقا فيها أبدا حتى أثناء الدراسة الجامعية .. عاودت بشرى تلك الذكريات الجميلة ولحظات مرحهن مع صديقهن "طارق" واللهو فى جدول مياه الرى ، شعرت بخجل أنها وصديقتها كانتا

تتحللان من كثير من ملابسهم أمامه ولكن الهدوء عاد إليها حيث لم يكن هناك من يشاهدهما سوي هذا الصديق المخلص "طارق" .

تواصل بشري قراءة رسائل صديقتها والتى تصلها من حين لآخر تخبرها فيه بكل شيء عن حياتها وأحوالها الدراسية فى جامعة "يوركشير" الإنجليزية وكيف افتقدت الأحباب فى القرية وتعاودها ذكرى لهوهم ولعبهم والتجول بين طرقات القرية الضيقة والأتربة والطين ثم تفرعت بحديثها بالسؤال عن حبيبها " طارق " كما ذكرت هذا اللقب مما ضايق "بشرى" خاصة أن طارق كان قد تزوج من "هنادى" وأنجبا مولوهما الأول ولهذا لم تخبر"سارة" بأي شيء عن هذا وهي بالأحرى لم تسألها عن اى معلومات.

توالت الرسائل من "سارة" الى صديقتها بشرى وأخبرتها أنها سوف تنتهي من دراستها بعد شهرين على الأكثر أي قبل نهاية عام ١٩٦٦ حيث كانت تستغل فترة الأجازة الصيفية وتدرس بعض المواد ولهذا فقد اختصرت نصف عام دراسي وأنها تفكر بعد الانتهاء من دراستها فى العودة الى القاهرة ومد جسور التواصل والألفة مع حبيبها "طارق" وقد اندهشت "بشرى" من تلك الأخبار وقررت إرسال رسالة تحذيرية الى صديقتها بخصوص ما يدور برأسها من أفكار وأخبرتها فى تلك الرسالة بأن طارق و هنادى قد اقترنا وأنجبا وقدمت نصيحتها بأسلوب شديد اللهجة بأن تبعد عنهما بحق الصداقة حتى لا تدمر تلك السعادة.

جاء خطاب من "سارة" الى بشرى على عجل تنعى فيها حظها العاثر لأنها فقدت "طارق" التى مازالت وسوف تظل تفكر فيه ولن يغادر قلبها أبدا ونظرا لما تكنه من حب لكلا الزوجين فقد قررت الابتعاد وعليها تحمل ألام الفراق وعدم إستكمال قصة حبها التى لن تنساها.

ما جاء برسالة "سارة" أثلج قلب "بشرى" وشعرت معه بالراحة بأنها قد نجحت فى إبعاد شبح تأثير "سارة" على صديقها "طارق" وهى التى تعلم مقدار تأثيرها عليه بل على الكثير من الشباب .

عصفور بالقفص

شاهدت صندوق البريد أمام شقتي وبه رسالة أعلم أنها من مصر لأن غلاف الخطاب مخالف في لونه عن الخطابات الإنجليزية ، أسرعت وحملت الخطاب وأنا فرحة سعيدة وقبلت الخطاب فقد كان من صديقتي الحبيبة بشري ، كنت أعلم أن الخطاب سوف يحوي بعض أخبار الأحبة والأصدقاء ويكفي أنه أتي من مصر الحبيبة التي لم أنسها أبدا وستظل عالقة بخيالي.

بداخل حجرتي أبدلت ثيابي واغتسلت من يوم العمل الشاق وداخلني حماس لقراءة خطاب الصديقة ، جلست علي سريري وفردت ساقاي للأمام واقتربت من مصباح المكتب المضيء وفضضت الغلاف بحذر حتي لا أتسبب في تمزيق الورقة الداخلية والتي تحوي أهم ما أنتظره من كلمات وأخبار فهي الترياق الذي يساعدني علي الحياة بتلك البلد الغريبة عني.

بعد أن انتهيت من قراءة المقدمة والتي تسعدني دائما بكلمات الحب الرقيقة والدعاء لله بالستر لي ولوالدي والترحم علي أمي الحبيبة وتذكر بعض خصال ومواقف أثناء جيرتنا بالقرية همست كلماتها بأذني بالخبر الصادم ، أعتقد بأنه لم يكن همسا بالنسبة لي بل كان دوي وفيه تخبرني بزواج طارق من الصديقة هنادي ، كان هذا الخبر متوقعا بالنسبة لي ولكني كنت أمني نفسي بأمنيات سعيدة بألا يتم هذا الزواج نظرا للفارق الاجتماعي والمادي بينهما ولكنه حدث وأصبحت الأمنيات سرابا لن تتحقق ، الحقيقة أصبحت واضحة

أمامي الآن ، سوف أظل أحبه وأعشقه من طرف واحد ولا يستطيع أحد مهما كان أن يتحكم في مشاعري وجنوح قلبي نحو طارق ونظرا لحبي له ذلك الحب الكامن بقلبي نحوه رحت أتمني له السعادة من كل قلبي مع عروسة الرقيقة هنادي التي اختطفته مني ولكنها ليست غريمتي رغم أنها فازت بقلب وعقل الحبيب.

خريف عام ١٩٦٦ أنهيت انا ووالدي كل متعلقاتنا بالعاصمة البريطانية لندن بعدها سوف نتوجه إلي إسرائيل دفعاً وترهيباً من الوكالة اليهودية ، كنت أشعر وأنا أتحرك بأن خطواتي ثقيلة وشعرت إني شبه مخدرة وخلال الأيام السابقة راودتني فكرة الهروب إلي مصر.

بعد أن استطعت تجميع بعض الأغراض الشخصية الخاصة بى وبأبي جلست أنظر إلي أركان المنزل القديم وأتذكر كل كلمة قالتها أمي سواء أثناء عيشتنا بمصر أو بالمملكة المتحدة ، كانت أمي تخشي عليّ من أي سوء يحدث لي مثل ما حدث من تصرف "زناتي" وهي كسيدة تعلم أن الله صبغني ونفحني بمسحة من الجمال فريدة ومؤثرة وكانت تستمع لأحاديث النساء بالقرية بأن (سارة بنت ناحوم المرابي زي طبج القشدة) ولا يعلو جمالها أي واحدة بالقرية أو القري المجاورة بل وصل الأمر بأن بعض السيدات الحوامل كن ينتظرن قريبا من منزلي ليشاهدنني وأنا أسير برفقة بشري في طريقنا للعب واللهو أو للسفر إلي قرية إسماعيل أفندي ثم بعدها التوجه للقاهرة كل هذا بغرض "الوّحم" حتي تتجب تلكم النسوة بنات جميلات مثلي.

كل تلك الأمور دفعت بأمي إلي أن تحتضنني وتبثني كل حنانها وحبها خاصة أن والدي كان بخيلاً ومقتراً عليّ أنا وأمي في النفقات وبالتالي انعكس هذا عليّ حيث لم أتمكن من الحصول علي ما أبغيه من نقود لمن في مثل عمري وأنا الفتاة النضرة الجميلة فكانت أمي تحاول أن تعوض هذا البخل في الإنفاق بمنحي بعض نقود قليلة للمساعدة علي أن أصبح قريبة من صديقاتي في الإنفاق وشراء الحلوي أو أي احتياجات خاصة بي ، انعكس هذا الحب الطاغي لأمي علي قلبي وعقلي ولهذا كانت وفاة أمي شديد الصعوبة وقاسية إلي أقصي درجة عليّ وعلي أبي.

أرسلت الوكالة اليهودية للهجرة بخطاب إليّ تطالبني بالتوجه إلي الفرع التابع لها بمدينة لندن وحددت الموعد بدقة كما كتبت اسم الشخص المسئول عن المكتب ، توجهت بمفردي إلي لندن وتركت والدي في بيتنا البال القديم علي حدود مقاطعة يوركشير متجهة إلي مكتب الوكالة.

بداخل المكتب استقبلني مدير الفرع استقبالاً حافلاً ورحب بي وذكرني بالوعد التي قطعته علي نفسي أمام المدير السابق الذي رحل عن الدنيا منذ عدة أشهر ، لاحظت أن الرجل الذي يحادثني شاب قريب العمر مني وكان يدقق النظر في جسدي وهذا لم يكن جديدا عليّ فكل فتاة أو سيدة تتمتع بمواصفات جمالية لافتة للنظر تشعر بهذا الشعور الذي يسعدها لفترة ولكنه إذا تجاوز الحدود فإنه يصبح شيئا سيئا.

اقترب مني الشاب عارضاً عليّ اقتراحا ولي حرية اتخاذ القرار النهائي وقد أدهشني هذا فالوكالة لا تعرض اقتراحات بل تصدر أوامر للتنفيذ وعلي أبناء الطائفة من اليهود التنفيذ فورا وكل شيء قابل للتنفيذ بدءا من التبرع بفلس حتي التضحية بالحياة دخولا في حروب متتالية من أجل تقوية الدولة الوليدة.

اقترب مني الشاب وطلب مني مشاهدة الصور المحفوظة بالدوسيه الذي قدمه لي .. تسلمت منه الملف وشاهدت محتواه فإذ هي صور خاصة لي التقطت دون علمي وفي أوضاع لا يجب أن يشاهدني عليها رجل قريب أو غريب لأنها خاصة جدا وتظهر أجزاء من جسدي تخجل أي أنثي ان تتطلع عليها أي صديقة.

قذفت بالملف علي المكتب صارخة به: هذا هو عملكم التلصص علي الحياة الشخصية لبنات ونساء اليهود ، هذا لم يحدث معنا طوال حياتنا في مصر التي تهاجمونها الآن ، بئس فكركم وسوف أتقدم بشكوي إلي المدير العام للوكالة ، إبتسم لي الشاب وأخبرني بأن تلك الصور وغيرها مرسلة لهم من مدير عام الوكالة وطلب مني أن أنصت وأستمع لما سوف يقوله والغرض من عرض تلك الصور.

نظرت إليه وشعرت أن لون عيناي الخضر قد تبدل وتغير إلي الاحمرار نظرا لحالة الغضب التي أصابتني من تعدي الآخرين علي جسدي وحياتي الخاصة والتي أعتبرها من أقدس الأشياء لي منذ حادثة زناتي.

يحدثني الشاب المسئول : اسمعيني يا سارة يا ابنة اليهود .. لقد ميزك الله بالجمال والفتنة وهذا شيء هام ويعتبر من الكنوز لدي أي امرأة وبالتالي لنا نحن أصحاب القضية ولهذا فقد اقترح البعض في الوكالة بأنه يمكنك أن تستغلي جمالك وفتنتك في مجال آخر بعيداً عن إسرائيل والحروب ، سأوضح .. بالمملكة المغربية توجد جالية يهودية كبيرة العدد كما يتجه لتلك المملكة الكثير من العرب والمصريين المسئولين بدولهم ولهذا فكرت الوكالة بأن تعيشي هناك وتتعرفي علي بعض الشخصيات المصرية التي لديها القرار والأسرار وتخالطيهم للحصول علي أسرار تلك الدول مع قضاء بعض أوقات المتعة وسوف تتولي الوكالة الإنفاق علي تلك الرحلات وستعطيك راتباً من أجل هذا الغرض.

نظرت إليه وكنت أشعر بأنني لا أستطيع النطق ، غادرت المكتب علي عجل ولكن إحدي السيدات العاملات بالمكتب لحقت بي واحتضنتني وصاحبتني إلي مكتب خاص لتهدأ من الضيق الذي ألم بي حيث كُنت ثائرة باكية وأنا أصف نفسي بأبشع الصفات السيئة بعد حديث مدير فرع الوكالة الذي وضعني في صفوف العاهرات.

كانت السيدة الأخرى هادئة وأخبرتني بكل ذوق وكياسة بأن الشباب اليهودي يُضحي بحياته من أجل قضيتنا العادلة وأنتِ ترفضين التضحية بتقديم بعض المتع لأشخاص سوف نحصل من وراءهم علي معلومات قيمة تساعدنا في الدفاع عن قضيتنا وتقدمنا لتجميع يهود العالم المغلوبين علي أمرهم في كل

بقاع الدنيا والذين يعاملون أسوأ معاملة ، أرجو منك يا سارة أن تعيدي التفكير فيماُ عرض عليك؟

نظرت إليها بدهشة ثم ألقيت عليها بسؤال: سيدتي هل لو طلب منك تقديم تلك التضحية سوف تقومين بها أو ترفضين مجرد الحديث عنها؟

ابتسمت لي السيدة واقتربت مني وأخبرتني بأنها قدمت مثل تلك التضحية مرات عديدة مع أشخاص دون المستوي بغرض المصلحة العليا للشعب الإسرائيلي ولعلمك أن هذا الخط من التضحية بالإغراء والجنس حصلنا من وراءه علي الكثير من النجاح والتقدم في قضيتنا حيث أن الرجال ضعاف أمام إغراء النساء خاصة الرجال الغرباء من الدول العربية والذين يعشقون الجنس!!

أعيدها ثانية .. هل قدمت تضحية مثل ما تقولين؟ ابتسمت لي السيدة واقتربت مني تقص عليّ بعضا من تلك التضحيات التي دفعت بى إلي مغادرة الحجرة فشاهدت الشاب اليهودي يقف في الصالة الكبيرة فأشار إليّ بالتوقف وأخبرني بكلمات بسيطة ، سارة عشرة أيام من اليوم ثم عليك التوجه بعدها بصحبة والدك إلي إسرائيل ، بعد ما سمعته من حديثك مع مدام "ايزاك" أشعر بأنك لن تستطيعي تقديم الخدمات المطلوب منك القيام بها في هذا المجال فليس أمامك سوي العمل في المستعمرات الإسرائيلية بالصحراء ومعالجة المرضي من اليهود.

تساءلت: كيف علمت بحديثي مع السيدة ونحن لم نغادر المكتب وهي مازالت جالسة في مكتبها .. إبتسم لي وأخبرني بأن كل ما يجري في مكاتب

الوكالة متصل بمكتبه بل بعض ما يحدث في منازل اليهود تعلم به العيون والأذن الصناعية المتواجدة لدي البعض لمعرفة أخبار اليهود.

رمقته بنظرة خاطفة تحمل كل غضب السنين الماضية منذ غادرت القاهرة .. ركبت الباص عائدة إلي الحي التي أقيم به ومازال ما شاهدته من صور فاضحة لي وما سمعته من رغبة الوكالة بتكليفي بأعمال دعارة رخيصة لابتزاز مسئولين مصريين خارج مصر يطن بأذني والغضب ُملم بى وأتمتم بعربية " قرف .. كنت عارفه أنكم بتعملوا أي حاجه لكن ما وصلناشي للمستوي ده"

بعد عودتي إلي منزلي التقيت بوالدي والذي شعر بأنني ثائرة وفي حالة شديدة من الضيق من لقاء اليوم بمكتب الوكالة .. اقترب مني متسائلاً: طلبوا منك تعملي حاجه مش بتحبيها؟ هززت رأسي بما يعني تأكيد حديثه ، أخبرني بأنه كان يعلم ما سوف تطلبه منك الوكالة !! فوجئت بما قاله أبي ونظرت إليه نظرة حزينة متسائلة بما يعني "ليه كده يا بابا؟"

لم ينظر إليّ فقد وجه نظره إلي الجهة الأخري حتي لا تتلاقي عيوننا وانا لا أجد أمامي من صدر حنون سواه .. يحدثني بكلمات ثقيلة اللسان .. حبيبتي سارة: أعلمك بأن غالبية الشعب اليهودي يقدم تضحيات مثل تلك والتي ُطلبت منكِ ومن غيرك وهذا منذ زمن بعيد ومن أجل هذا نقدمها مثل ما يقدم الشباب روحه وحياته في الحرب وينتهي عمره لكي يعيش باقي الشعب وأنتِ لن تقدمي روحك ولكن سوف تقدمي بعضا من المتع لبعض المصريين الذين يتولون وظائف هامة بالدولة المصرية.

لم أستطع أن أتحدث واتجهت إلي حجرتي وألقيت بجسدي المنهار علي السرير ودموعي مثل شلال منهمر ، أنادي بصوت مرتفع الحبيب "طارق" قائلة : (أنت فين؟ الحقني وأنقذني زي ما أنقذتني يوم "زناتي" ، وأنت طفل ومرضيتش حد يعتدي عليّ) والآن وبعد أن أصبحت عروسا وبلغت مبلغ النساء أشعر بأن الجميع يدفعني إلي بيع جسدي مثل ما تباع السيارات والعمارات ، طارق لقد فقدت آدميتي وأصبحت سلعة ، ما زالت أحبك وكما سبق وأن عاهدت نفسي وأمي بأنه لن يقربني أي رجل سواك والبديل هو الانتحار.

****

مضت الأيام بسرعة ووجدت نفسي أصطحب أبي العجوز إلي أحد موانيء المملكة المتحدة مع بعض العائلات اليهودية متجهين إلي إسرائيل ،كنت أشاهد العائلات من الرجال والنساء والأطفال وهم سعداء بتلك الرحلة وبالأرض التي سوف يصلون إليها .. إنها ارض الميعاد التي وعد بها الرب عباده من اليهود والذين هم أحسن البشر وميزهم عن الآخرين.

في صالة الانتظار جلست بجوار سيدة يهودية صغيرة السن ولديها ثلاثة أطفال، استفسرت منها لماذا هي سعيدة؟ أفاضت السيدة بكم من المعلومات التي حصلت عليها من الوكالة اليهودية عن الميزات التي سوف تحصل عليها بعد الهجرة والتي تصب في تملك قطعة أرض زراعية ومنزل راق وتعليم الأبناء

دون أي نفقات والأهم تنفيذ مشيئة الرب بالعودة لأرض الميعاد وطرد المسلمين الهمج منها.

دهشت لهذا ثم استكملت استفساري من السيدة عن المكان التي أقبلت منه وما كانت تشغله هي وزوجها من عمل .. علمت من السيدة بأنها من مقاطعة بدولة بولندا علي الحدود الألمانية وهم يعملون في فرز أكوام القمامة لصالح شركات التصنيع وأن غالبية المهاجرين معها يعملون أعمالا بسيطة أما من يتقلد مركزا مرموقا أو حصل علي تعليم جامعي فلم يفكر في الهجرة.

أيقنت بأن الوكالة اليهودية تنتقي المهاجرين الفقراء المعدمين لتدفع بهم إلي فلسطين ويقوم اليهود الأغنياء بالتبرع للوكالة ولهذا فقد قسمت الأعمال علي اليهود. الفقراء للعمل بالمستعمرات الإسرائيلية .. الأغنياء يظلون في بلادهم يعملون يتبرعون ويقدمون يد المساعدة لإسرائيل ماديا ومعنويا. الشباب للحرب وبعض الفتيات اللاتي يتميزن بالجمال ترسل بهن للحصول علي المعلومات والأسرار أي للتجسس.

بئر سبع

هذا يوم لن أنساه طيلة حياتي القادمة ، فقد وصلت صبيحة ذاك اليوم الأول من شهر فبراير إلي إسرائيل وقد مضي علي تخرجي من كلية الطب عدة أسابيع مؤلمة كنت خلالها أشعر بغصة في قلبي ، كانت الذكريات تهاجمني ، هناك في المملكة المتحدة يرقد جثمان أمي الطيبة والتي تحملت كل مساويء أبي خاصة البخل والتقتير ، لم تكن أمي صاحبة شكوي أو تتحدث مع الآخرين عن سوء سلوك أبي وإهماله لها بل أغلقت فمها علي كل آلامها ، لقد كنت أشعر بما تقاسيه ولم تكن زوجة بمعني الكلمة مثل ما أشاهده من الناس المحيطين بي من علاقات طيبة بين عائلات الفلاحين من ُحسن العشرة والتعامل مع زوجاتهم وأسرهم ، لم يكن أبي تقيا طاهرا يقرأ في الكتاب المقدس لدي اليهود ، لقد كانت كل عبادته للمال والربا وظلم المساكين الذين يعيشون من حولنا ، كان يحصل علي مجهودهم وعرق العام بسبب ما أقدمت عليه أيديهم من القروض التي حصلوا عليها سواء للزراعة أو لعلاج مريض لديهم.

كانت أمي دائما ما تنبهه إلي سوء فعله وبأنه يغالي في عائد الإقراض ، لم يكن يهتم بما تقول أو تتبرم منه ، حتي علاقته الزوجية بها كانت بائسة فلم أتذكر يوما أنها نامت معه في نفس الحجرة بل كانت تبيت ليلتها في حجرة ضيقة وضع بها كل أوراق الرهن لتقوم بحمايتها وحراستها ، تقوم بحراسة ما

تكرهه وتبغضه وكان السبب الرئيسي في تحملها لكل هذا يرجع إليّ أي إلي ابنتها.

لقد كانت رحلة الباخرة من أحد موانيء بريطانيا الصغيرة سيئة إلي أقصي درجة كما كانت الباخرة صغيرة الحجم سيئة الإعاشة ، كنا مثل الحيوانات المرسلة من مكان لآخر بل وصف أحد البحارة بأن تلك السفينة كانت تحمل فيما مضي بعض العبيد من أفريقيا إلي أمريكا في نهاية القرن التاسع عشر ، لقد استمرت رحلة السفر حوالي أسبوع خلالها التقيت بالسيدة مائير والتي كانت ضمن مجموعة المرافقين لنا وحدثتني بكل خبث ودهاء متسائلة : ألم يكن من الأفضل لهذا الجمال البارع والفتنة الطاغية أن تحيا وتعيش بين القصور والفنادق الفاخرة وتحصل علي أموال نظير كل عمل تقوم به لصالح دولتنا الوليدة ، ماذا سوف يضيرك إذا أعطيت هذا ليلة وذاك ليلة أخري .. تقريبا مرتين أو ثلاث ليال كل أسبوع وتحيا في كنف الوكالة ومالها الوفير ، تركتني بعد أن أعادت وضع السم القاتل في حديثها السيء والتي رفضته قبل هذا ، لقد كان عرضها سيئا مثلها.

أثناء الليل عاد حديثها يطن بعقلي البائس متسائلة: ماذا سوف يحدث لي؟ ما هو القادم بعد الحب والحياة السعيدة بمصر؟ هل أنا أتقدم أو أتأخر بعد أن ُعرضت عليّ أكثر من مرة تلك الحياة البهيمية ، راودتني فكرة السيدة مائير ، ما المانع بأن أعطي هذا وذاك جسدي وكل يحصل علي قطعة اللحم التي يشتهيها !! فزعت من هذا الرأي وعادت بي الذاكرة إلي مصر وحبي الكامن

بها ، لقد كان طارق هو صمام الأمان لي مرتان ، الأولي يوم محاولة "زناتي" أن ينال مني وتلك هي المرة الثانية ، فلولا حبي له لكان من المحتل أن اقتنع بفكرتهم وسرت معهم في غيهم ولكن حبي له منع عني أي سوء فعل أو قول ، أين أنت يا طارق أيها الحبيب؟ هل تسعدك هنادي وهل ذقت حلاوتها؟ كنت أتمني أن أكون أنا ولكن كل شيء قسمة ونصيب.

أتذكر أسرة طارق هؤلاء القوم الطيبين ، لقد عشت أحلي أيامي خلال السنوات السبع بين ربوعهم وحبهم وبساطتهم وكرمهم ، لم يبخلوا عليّ أو علي بشري بأي شيء ، لم يفرقوا في المعاملة بيننا وبين أبنائهم وبناتهم ، بل لقد فضلونا علي طارق وصعد لينام بحجرة بسطح المنزل وهي حجرة سيئة بمقارنتها بحجرته السابقة التي ظللت أعيش بها مع بشري سبعة أعوام كلها نجاح وحب وسعادة ، لا يجب عليّ البكاء ، لقد أضاع أبي مستقبلي ، لو بقيت بمصر لكنت أسعد حالا وكان من الممكن أن أشاهد طارق من علي ُبعد وأسمع أخباره عن قرب من صديقتي العزيزة بشري.

استيقظت صباح اليوم التالي لوصولنا وها أنا أشاهد مندوب الوكالة وهو يقرأ كشفا بأسماء البعض ، سمعت اسم أبي وأشاهده مع الباقين يتجمعون علي احد الأجناب ، ماذا سوف يحدث وإلي أين هم يتجهون؟ أقبلت بعض اللواري وبدء بدفع البعض منهم إلي داخلها ، لا لن يحدث هذا فلن أفرط في آخر حبة من ُعقد سعادتي التي انفرط عقدها منذ تركت الحبيبة مصر ، أبي .. أبي .. حاول بعض الجنود منعي ولكني قاومتهم حتي وصلت إليه ، أشاهده والدموع تجري

في عينيه الضعيفة والتي لا تساعده علي القراءة والكتابة مثل الماضي .. أتساءل إلي أين؟ يخبرني بعض الشباب المرافقين بأنه سوف يرسلون بهم إلي مستعمرة ناحال بئر السبع في الجنوب الشرقي للمدينة .. لا اعلم شيئا ومن تكون بئر سبع .. لحظتها اندفع مندوب الحكومة يلقن المرافقين بعضاً من المعلومات الجديدة علي مسامعي حيث قال:

بئر سبع مدينة تقع في وسط أرضنا الحبيبة التي عادت إلينا بعد أن طردنا منها الشراذم المجرمة من المسلمين الأوباش ، يحيط بها عدة مستعمرات للدفاع عنها ضد أي هجمات من العدو الأول لنا مصر تلك الدولة التي طردت نبينا موسي عليه السلام وأجدادنا المرافقين له ، لقد حاول الفرعون قتلهم ولكن الرب أنقذهم من جبروته وقسوته لأنهم علي حق وهذا الفرعون القاتل علي باطل مثل أحفاده من المصريين الآن وخاصة الفرعون الحالي والذي يدعي ناصر ، تلك المدينة تتحكم في عدة طرق عرضية ولها قيمة إستراتيجية لوضعها بجنوب البلاد.

استمر الرجل في حديثه لبعض الوقت بينما طار عقلي وقلبي إلي الغرب هناك بمصر بجوار الفرعون الأصغر الذي يتحدث عنه مندوب الحكومة ، هذا الفرعون الذي يعشقه جميع المصريين لما يقوم به نحو وطنه وشعبه ، لقد استفاد منه الكثيرين وأنا منهم حيث مجانية التعليم التي لم تكلف أبي ما يعجز عن إنفاقه وبالتالي كنتُ حرمت من تلك النعمة.

طلب مني مندوب الوكالة وبكل هدوء أن أعود إلي مكان جلوسي استعدادا لتوزيعي علي مكاني المعد لي والتي سوف أقوم فيه بخدمة دولة إسرائيل ، ساعدني البعض حتي هدأت ولكني شعرت بأني لن أشاهد أبي بعد هذا اليوم فلقد كانت أحداث حرب عام ١٩٤٨ مازالت ماثلة للعيان أمام الجميع ونعلم بأن العرب وخاصة مصر لن تسكت علي تلك السرقة التي قامت بها تلك الوكالة بالتعاون مع الجيش البريطاني الذي كان يحتل مصر ثم ما تلاها من معركة عام ١٩٥٦ وبهذا لن تستقر المنطقة.

في المساء جاءني مندوب الحكومة بالمنطقة يخطب ودي ، عرض عليّ أن اعمل في مكتبه كمساعدة له في الأعمال التي يقوم بها وشرح لي بعضاً من مميزات ذاك العمل حيث أخبرني بأن هذا العمل يستدعي السفر للخارج كل عام عدة رحلات وهناك يستطيعان الاستمتاع بوقتهم وبالحياة بعيدا عن تلك الصحراء الجافة ، شاهدت في عينه الرغبة الجامحة لرجل يرغب في معاشرتي ، شاهدت عيون زناتي وهو جاثما فوقي محاولا أن ينالني ، شعر الرجل بأن صمتي وسكوني دليل علي الموافقة أو التفكير ، اقترب مني محاولا خطب ودي ولكني نفضت عني غبار السكون ووقفت طالبة منه مغادرة المكان وعليه أن يخبرني بأي مكان سوف أخدم به الدولة ويفضل بأن يرسل بي إلي المستعمرة التي توجه إليها والدي عصر ذاك اليوم.

نهض الرجل غاضبا وتركني وهو يخبرني بأنه يجب عليّ من صباح الغد التوجه إلي مستشفي "سوروكا" بمدينة بئر سبع ويجب علي ألا انسي بأنني

اخضع للقوانين العسكرية منذ وصلت إسرائيل وأي تهاون أو تقاعس معناه تعرضي لمحاكمة عسكرية ، ثم رمقني بنظرة خاطفة معلنا بأني اكتسبت من المصريين سوء تصرفهم وبلادة عقولهم.

بعد أن انصرف انزويت في أحد أركان الحجرة باكية بصوت مرتفع اندب حظي العاثر لما فعله أبناء اليهود بمصر ، لقد كنا في راحة ويسر المال وحسن المعاملة ، كنا الطبقة الرفيعة المستوي وفوق طائلة القانون ، كنا نعامل معاملة السيد من العبد من طيبة هؤلاء الفلاحين البسطاء وقيل لنا بأننا أغراب عن مصر ويجب علينا ان نرافقهم إلي بلدنا أرض الميعاد ، لقد أتينا لنحصد الحصرم والندم من مراودة كل رجل يلقاني أو من نفي أبي العجوز للعمل بمستعمرة ناحال بئر السبع وحراسة الحدود الجنوبية في وجه المصريين ، ماذا يخبأ لي القدر؟ لا أعرف واعتقد بأن نهاية حياتي سوف تصبح قريبة.

سكنت وخمدت ثورتي حينما سمعت راديو ترانزستور مع أحد المهاجرين بالمعسكر يذيع أغنية أم كلثوم يا اللي كان يشجيك أنيني .. تذكرت تلك الأغنية وأنا اسمعها بصحبة كل من طارق وبشري أثناء إقامتنا بمنزل إسماعيل أفندي ، سرحت مع خيالي الشفاف هذا الخيال المغلف بالحرير المخملي الرقيق ولا يقترب مني إلا كل كلمة طيبة وذكري حالمة لحبيبي طارق ووطني مصر ، تمنيت أن ألتقي بطارق وسوف أحتضنه ولن اتركه أبدا ، إذا كان راغبا عني فأنا راغبة به ولن أتركه بسهولة وليكن ما يكون ولن يصبح الدين عقبة أمامي ، خلدت في نومي احتضن ذكري الحبيب.

في الصباح أقبلت سيارة لوري عسكرية وركبت علي متنها متوجهة إلي مستشفي بئر سبع "سوروكا" ، المستشفي عبارة عن معسكر ومستشفي للجيش الإنجليزي خلال فترة الانتداب بفلسطين ، التقيت بأحدي العاملات بالمستشفي وتعرفت عليها ورحبت بى ثم توجهت معي إلي مدير المستشفي ، كان المدير رجل مهذب وغاية في الرقة ودماثة الخلق ، لقد أتي الرجل من جنوب أفريقيا وهو من أصل ايرلندي مما ساعدنا في التحدث باللغة الإنجليزية ، أخبرني بأنه يعمل بتلك المستشفي منذ أربعة أعوام ويعيش معه كل من زوجته وابنتيه.

نظر إليّ الرجل قليلا ثم طلب مني أن أفصح عن شخصيتي ومن أي قطر أتيت وبأي جامعة درست ، شرحت له بإيجاز كل شيء وهنا ظهر الضيق علي ملامح وجه متسائلا "كيف تهاجرين إلي هنا وأنتِ تعيشين في مصر هذا البلد المتقدم ذو الحضارة والمجد وتأتي لتقيمي بتلك البلاد وكل ما يجمع هؤلاء الديانة فقط أما عدا ذلك فلا شيء وليكن في علمك إنك سوف تُدهشين من نوعية اليهود هنا فأغلبهم من حثالة الدول وأقلهم ثقافة ورقي ، هم مثل المجرمين الذين أرسلت بهم ملكة إنجلترا إلي استراليا ، لقد صادفك سوء الحظ واتخاذ القرار.

عُدت في ذاك اليوم إلي الاستراحة الصغيرة الملحقة بالمستشفي وأنا في أشد حالات الضيق والتوتر ، شعرت بأنني أحيا بسجن دون أغلال ، كنت أفكر كيف أفر من ذاك السجن وأتجه لأي دولة إذا ما رفضت بلدي مصر قبولي ، كانت كل بارقة أملي وأعظم أحلامي الطيبة مشاهدة طارق ثم أعود وأتساءل بأنني لن

أستطيع لقاءه طالما ظللت هنا بإسرائيل فالعلاقة بين مصر وإسرائيل أصبحت عدائية ويشوبها كل تصرف سيء بين الطرفين.

لم أجد أمامي أي شيء يخرجني عما أنا فيه من صراع النفس والبدن سوي العمل وأكتفي كل مساء بسماع صوت ام كلثوم من إذاعتها السرية والتي يقول عنها الجيش الإسرائيلي إنها تبث تلك الأغاني للقوات المصرية التي تحارب في اليمن ، كل مساء يصبح غناء ام كلثوم دوائي لهذا الداء الذي ألم بقلبي ومشاعري ، الاستماع لأرق القصائد الرائعة ثم أخلد في نومي أحتضن صورة وكلمات طارق في مخيلتي حتي ازرف بعضا من دموع الشوق أتوه بعدها في نومي.

مضت عدة أيام علي عملي بالمستشفي ، كنت اعمل بلا كلل أو تعب ولم يكن لي صحبة سوي الطبيب "بنيامين" وعائلته .. في أحد الأيام طلب الطبيب بنيامين لقائي بالمكتب ، هناك شاهدت رجلا في ملابسه العسكرية وأخبرني بأن والدي مريض وراغب في أن يشاهدني ، لم اقوي علي التماسك واندفعت باكية وهنا طلب الطبيب من المندوب بأن يعمل علي ترحيل والدي إلي المستشفي للإشراف عليه ورعايته ، وافق الرجل علي أن تسلمه إدارة المستشفي خطاب موجه لإدارة المستعمرة تعلن فيها موافقتها علي رعايته وتقوم ابنته بتسليم ذاك الخطاب لإدارة المستعمرة.

أنهي الطبيب كل تلك الإجراءات وركبت سيارة إسعاف المستشفي ، وصلت عصر ذاك اليوم إلي مستعمرة ناحال بئر سبع وأرشدني المندوب إلي

موقع عمل أبي ، شاهدته يرفع تلال من الرمال ومعه بعض نفر في مثل عمره وهم يتألمون ويبكي البعض منهم سوء العمل ، أسرعت أحتضن أبي والذي وقف صامتا مندهشا مما يحدث وتساءل من تكونين؟ زاد هذا من حزني وقد شعرت بأن أبي لم يعد يدري ما يحيط به من قسوة الحياة وسوء المعاملة وسوء طقس الصحراء شديد الحرارة ، نظرت إليه وطار عقلي الاف الأميال إلي عزبة كتكت أشاهده يجلس علي مكتبه يحاور الفلاحين المقترضين وحجرته تلك بها شباك كبير يطل علي حديقة الموالح الملحقة بالمنزل ، مازالت أشاهد غبار العمل علي وجه أبي وقد برزت عظام وجهه وأصبح كفاه متصلبان من قسوة الحياة.

أخيرا تنبه إليّ ولحظتها بكي علي صدري كطفل صغير وأنا اعمل علي تهدئته وبعض المحيطين بى يشرحون ويوضحون لي سوء الحياة بتلك المنطقة وأن أبي سقط أرضا أكثر من مرة أثناء العمل.

اصطحبته إلي المستشفي وهناك تمت رعايته وكانت النتيجة مبشرة خاصة أنه سمع وشاهد واشتم رائحتي كما كان يقول لي دائما أنتِ فلذة كبدي الوحيدة يا سارة ، بعد أن تحسنت حالته أقبل مندوب الحكومة بالمقاطعة واصطحب أبي إلي مكان عمل مكتبي بعيداً عن عمل المستعمرات مما أثلج صدري وأشعرني بالراحة والاطمئنان عليه.

مازلت مترنحة حيث كنت أتقلب علي نار الغضب والضيق لما حدث لي ولأبي ، لم انسي أيام وسنين عمري السعيدة والتي قضيتها بمصر وفي عزبة

كتكت ، أصحو علي أحلام الماضي وأنام علي كوابيس الحاضر ، حاولت التأقلم دون جدوى ، انهمكت في العمل لعل هذا يخرجني مما ألم بى ، ومما زاد من تعاستي هؤلاء المهاجرين من بقاع العالم ، من الشتات حيث كان القوم غاية في التخلف والبلادة وسوء الخلق ، لم أجد تصرف سيء إلا وقاموا به بل أتوا بتصرفات وأخلاق لم أكن أسمع عنها في مصر ، كانت الفجوة كبيرة بين سلوك هؤلاء وسلوك من عرفتهم طيلة حياتي السابقة ، كنت أشعر بأن مستقبلي مظلم.

مضي عليّ وجودي شهرين ثم سمعت وعلمت من الإذاعة بأن بعض المشاكل السياسية حدثت بين مصر وإسرائيل ، بعد هذا شهدت ولمست مدي الضيق بالمجتمع الذي أحيا به ، علمت بأن الطوارئ أعلنت بجيش الدفاع الإسرائيلي ومما زاد الطين بله إنني جندت لخدمة العمل العسكري ومنحت درجة عسكرية ولباس خاص لهذا وعليّ العمل بتلك المستشفي لخدمة جيش الدفاع.

****

مضت الحياة هانئة بالحبيبين "طارق وهنادي" وبينهم الرضيع وصفي الذي تعدي عمرة بضع شهور لكن كل شيء انقلب فجأة الى النقيض فالاستقرار تبدل والهدوء اختفى وحل مكانه التوتر والترقب .. لقد حدث توتر سياسي بين مصر وإسرائيل مما دفع إلي توتر عسكري أيضا وتصاعد ليس كل يوم بل كل ساعة وأعلنت القوات المسلحة المصرية حالة الطوارئ العامة فى البلاد وهذا معناه احتمال قيام حرب ولم تكن آلام حرب عام ٥٦ قد انتهت بعد فلم يمض

عليها سوى عشرة أعوام وصرح البعض بأنه ليس من المنطقي ان نظل ندخل في حروب كل عشرة أعوام مع تلك الدولة الحديثة التى أنشئت على أنقاض فلسطين.

ُدفع بالقوات الى سيناء والشعب يترقب هذا الزحف ووسائل الإعلام تصوره على انه بداية النهاية لجار السوء القاتل المحترف الذي أغتصب حقوق العرب .. تبعت الحملة الإعلامية الأناشيد الحماسية والتعليقات السياسية والصور العسكرية للحشود وتحركات الأسلحة الكبيرة والضخمة وبعض القادة العسكريين الذين ظلوا قابعين طوال خدمتهم فى المكاتب أدلوا بدلوهم بالتصريحات التى تبين للشعب ماذا سيحدث للأعداء على أيدي رجالنا الأفذاذ.

شعرت هنادى بضيق شديد ألم بصدرها وهى تشاهد اندفاع الجنود الى سيناء ومن بينهم زوجها الحبيب "طارق" وما يمكن ان يحدث له إذا اندلعت الحرب ، لابد من وجود خسائر بشرية وهل تضمن ان يظل زوجها بخير وسلام ، لا يستطيع أحد ضمان هذا فهى الحرب التى لابد من تقديم تضحيات جسام بدماء الشباب للذود عن بلادهم.

نظرت الى أبنها الرضيع "وصفى" تحدثه بقلبها بكلمات هى عبارة عن نبضات وليست حروفا من فم وتسأله : هل تعرف أباك وتحتفظ بصورته فى عقلك الصغير الذي لم يتكون بعد؟ هل تعلم هل سيعود ام ُيصاب او ينال الشهادة ولن نراه بعد اليوم وأنت يا طفلي الصغير كل شيء مكشوف أمامك وتعلم ما يعلمه الله ولكنك لا تستطيع البوح به وإلا ساعتها سوف تزال عنك كل أخبار

الغيب .. سقطت بعض قطرات دمع من قلبها وليس من عينيها الجميلتين فقلبها حزين وهذه هى سُنة الحياة بأن تنتظر الزوجة زوجها وتريد الحفاظ عليه من غدر الزمان وضربات القدر.

****

اقترب شهر مايو لهذا العام علي نهايته وما زال التوتر قائما ، أثناء الليل كنت أصعد إلي ظهر مبني المستشفي لأشاهد نجوم الليل وأنظر إلي الجهة الأخرى من خلال الحدود جهة الغرب وأتساءل هل من المعقول أن أقف هنا وأبناء وطني يقفون بالجانب الآخر من الحدود ، هل من المعقول أن تنشب حرب بين الدولتين وأشاهد جرحي وأسري من وطني الحبيب وقد أشاهد أحد أبناء عزبة كتكت ، طرأ بخيالي أنه من المحتمل أن يجند طارق ضمن قوات الجيش ويدفع به إلي أتون المعركة ، أصابتني رعشة وقشعريرة كأنني أصبت بحمي الملاريا مجرد أن طرأ هذا علي خيالي ، شعرت بأننا سوف نُصبح مثل أبناء آدم قابيل وهابيل ونتقاتل سويا ، كنت أعتقد بأنه لو حدث مثل هذا الخاطر سأصاب بالجنون ولن أستطيع مواجهة مثل هذا الموقف فحبي لوطني مصر ليس له حدود كما أن ولائي لهؤلاء القوم يجب أن يكون في محله ، صحيح بأنني لن أقاتل ولكني سوف أطبب وهذا عمل إنساني يتساوي فيه العدو والصديق.

****

نشبت المعركة وهالني ما كنت أسمع عنه وأشاهده علي شاشة التلفزيون الإسرائيلي ، لقد استطاع الطيران الإسرائيلي أن يدمر الطيران المصري وأصبحت المعارك البرية علي قدم وساق ، كنت وجلة ومتخوفة أن يأتي الجيش المصري ليهلك الجميع وهذا ما شعرت به وسمعته ممن حولي وماذا سوف يكون عليه حالي لو علموا بالأمر ، سوف أعتبر خائنة لوطني مصر ، وفي نفس الوقت كنت أشعر بالخوف علي أبناء بلدي وكل مصري من أن ينتصر عليهم هؤلاء القوم من مختلف الأعراق ، كنت في دوامة بلا ملل أو كلل.

أبطــال الصحــراء

أندفع "طارق" مع المندفعين الى سيناء يحدوهم الأمل بالانتصار على الأعداء .. احتلت وحدتهم موقعا أعدوه إعدادا جيدا وبعدها بأيام انتقلوا الى موقع آخر وكل موقع ينتقلون إليه يعدون التجهيز الهندسي والذى يساعد على إخفاء قطع المدفعية والأفراد والذخيرة فتقوم الأرض بتقديم الحماية لهم من القذائف التى قد يتعرضون لها.

هذا هو اليوم المنشود او اليوم الكئيب الخامس من شهر يونيو عام ١٩٦٧ولكل وحدة عسكرية الحق فى إطلاق الاسم المناسب عليه فلم تكن الحرب متساوية فى النتائج على جميع الوحدات لأن ما حدث من أوامر انسحاب للقوات الى الخلف كان غير متوقع ولم يكن أحد ينتظره وحدث هرج شديد لتنفيذ هذا الأمر ولكن المشاهد أن جزءا من القوات كان ينسحب للخلف بينما وحدات أخري تندفع للأمام ووحدات أخرى تبدل مواقعها وتتحرك عرضيا نهارا معرضة أجنابها للقذف وخاصة بعد تدمير سلاح الطيران المصري.

بدأت المعارك مع العدو والوحدة التى كان يعمل بها طارق تحتل موقعها جنوب منطقة "القسيمة" والنقيب "فريد" قائد السرية والذى شعر طارق بأنه محترف وليس موظفا قد أعد موقع الوحدة بطريقة على أعلى مستوى حيث كانت المدافع تحتل موقعا بين صخور وتلال مرتفعة ومنخفضة تساعد على

الاختفاء وتبعدهم عن أسلحة الضرب المباشر من المدفعية والدبابات وكان الخطر الداهم عليهم الطيران المعادى.

أمر قائد السرية بأن يتواجد جنديان بجوار كل مدفع على أن يبتعد الثلاثة الباقون حتى يقلل الخسائر لأقصى درجة كما وزع الذخائر فى أماكن بعيدة عن موقع المدافع حتى لا تدمر وتدمر معها الوحدة بمدافعها وجنودها .. أستمر اشتباكهم مع قوات العدو من مساء الخامس من يونيو حتى صباح الثامن من نفس الشهر ولم يتلقوا أوامر انسحاب نظرا لتدمير خطوط الاتصال كما دمرت الطائرات المعادية وسائل نقل الجنود والمدافع وأصبح من المتعذر أن تنفذ الوحدة أي انسحاب إذا حدث اتصال مع القيادة وإلا سوف يتم بدون سلاح وإذا ظلوا متمسكين بموقعهم فهذا يعتبر أكثر أمنا خاصة أنه فى عصر يوم السابع من يونيو حدث هجوم من المشاة الميكانيكي الإسرائيلي على وحدتهم وقام قائد السرية بقذفهم بغلالات نيران بالذخيرة شديدة الانفجار مما أحدث بهم خسائر جمة لم تتحملها القوات المهاجمة وكانوا يشاهدونها بالعين المجردة أو بنظارة الميدان.

أنسحب الإسرائيليون الى الخلف وجمعوا خسائرهم وأعادوا قصف وحدة الهاون بواسطة نيران المدفعية ثم تلي ذلك القصف الشديد والمركز من الطائرات مما دفع بالجنود الى الاحتماء بين الصخور والاختفاء بداخلها وبذلك قلت الخسائر ..قبيل الفجر تسللت قوة كوماندز إسرائيلية الى الموقع وهم يعلمون أن السلاح الشخصي لجنود المدفعية ضعيف ولن يجدي أو يؤثر عليهم

ولكن لسوء حظ قوات العدو أن قيادة اللواء التي تتبعه سرية الهاون كانت قد أعدت مخزنا للشئون الإدارية به أيضا أسلحة من بينها رشاشات وبنادق للمشاة والذخائر قريبا من سرية المدفعية ، كان النقيب "فريد" بعيد النظر إذ أمر جنوده باستبدال الرشاش القصير "بورسعيد" بالرشاش الروسي .. فوجئت قوات الكوماندز الإسرائيلية بحجم نيران لم تكن في حسابهم وحدثت خسائر شديدة بين الطرفين مما دفعهم للانسحاب حينما شعروا بضراوة المقاومة.

أستطاع النقيب "فريد" بمعاونة رقيب أول السرية تجميع كل ما أمكن الحصول عليه من وسائل الإعاشة من القوات المنسحبة سواء من التعيينات أو المياه والتى كانت مخزنة قريبا منهم بجوار الأسلحة وأعانهم هذا فى إمكانية التمسك بالموقع .. شعر الإسرائيليون بأنهم يلاقون مقاومة شديدة مما دفعهم لترك تلك القوة المشاغبة حتى ينتهوا من قتال بعض القوات التى تسير بدون هدى ولهذا قاموا بنصب العديد من الأكمنة ضد المنسحبين وخلال تلك الفترة استطاع قائد سرية الهاون ١٢٠مم إعادة ترتيب موقعه وتجميع أكبر كمية من ذخائر المدفعية من نفس عيار مدافع وحدته مع بعض الشئون الإدارية .

اليوم العاشر من شهر يونيو هاجم موقعهم سرية دبابات وسرية مشاه ميكانيكي بغرض القضاء عليه مع استخدام الميكرفون طالبين المصريين بالتسليم ورفع الراية البيضاء ، نظر إليهم النقيب "فريد" مبتسما كأنه ينتظر موعداً هاما قائلاً :

ـ فرصتنا جت .. عايز ندمر أكبر عدد من قوات اليهود ولهذا لم يقاومهم وتركهم يتقدمون الى ان وصلوا الى مسافة إثنين كيلو ، أمر بفتح النيران عليهم .. حدثت خسائر كثيرة بين قوات المشاة الميكانيكي المعادية الذين حاولوا الهرب بصحبة الدبابات وكان أمامهم مسافة ثلاثة كيلومترات تحت نيران القصف المؤثر لمدافعه ومازالت الخسائر تتوالى وطالت النيران بعض الدبابات مما دفع جنودها إلي مغادرتها تاركين مركباتهم المدمرة ، توقفت الدبابات المتبقية تصب نيرانها المباشرة علي الموقع.

توالت الخسائر بين جنود المدفعية وأستشهد ضابطان بالموقع وكان طارق يعمل كمساعد للقائد فى إدارة النيران .. هبط الى الموقع ليقوم بعمل الضباط الشهداء وكلما حدثت خسائر بين جنوده يأتي البديل من المختبئين بداخل الصخور .. ظلت المعركة دائرة ونال النقيب "فريد" الشهادة فتولي طارق القيادة واحتل مركز الملاحظة ، دمرت النيران المعادية بالتوالي مدفعين وازدادت خسائر الجنود ولم يتبق بالموقع سوي رقيب أول السرية وخمسة جنود يعملون على أربعة مدافع وطارق الذي ظل بمفرده بمركز الملاحظة كما أن المدفع الذي كان يقوم عليه خمسة جنود أصبح يعمل عليه واحد فقط يقوم بإحضار الذخيرة من الخلف وتنظيفها من الشحم وضبط الزوايا والتنشين والضرب.

شعر الإسرائيليون بأن جنود الموقع يلفظون أنفاسهم الأخيرة فشنوا هجوما كاسحا دمروا ما تبقى من المدافع وباقي الجنود الذين سقطوا صرعى سواء فى

مركز الملاحظة أو الموقع ، لم يشعر طارق لما حدث له أو لمن حوله ولكنه شعر بعد فترة بوجوده علي سطح لوري ومعه رقيب أول السرية وهما ينزفان بغزارة وسمع أحاديث جنود الأعداء والتي لم يفهم منها كلمة واحدة لأنها تدور باللغة العبرية والتي لم يسبق له دراستها.

****

كانت الطامة الكبري أن أبناء بلدي هزموا في المعركة ، كنت أشعر بألم يعتصر قلبي وأنا أشاهد الأسري المصريين مكبلين بالأغلال والبعض منهم في جوف الصحراء القاتلة يسيرون بغير هدي ، كنت أشاهد كل هذا ومن حولي الإسرائيليين فرحين وتغمرهم السعادة بما تم ويقذفون أبناء بلدي بكل عبارات سيئة قاسية ، كنت أشعر بالدماء تنزف من قلبي ومن كل جوارحي خاصة حين مشاهدة الجنود المساكين والتي كنت أشاهدهم في قراهم بنفوسهم الطيبة وهلاك أجسادهم تحت العوز والفقر والمرض ، كنت أنظر إليهم وأنا أخاطب نفسي بأن هذا فلان وذاك يشبه فروح ابن عم الحبيب طارق ، حينما طرأ هذا الاسم علي بساط عقلي شعرت بأن قسمات وجهي تجمدت ودققت النظر لعلي أشاهد طارق بين تلك الجموع من خلال الآلاف المؤلفة.

امتلأ المستشفي بالجرحى وكانوا جميعا من أبناء بلدي أحبائي ورغم حزني عليهم بقدر سعادتي وأنا أشاهد تلك الوجوه وأسمع تعبيراتهم وأحاديثهم التي حرمت منها قرابة الخمسة أعوام ، لقد خصصت المستشفيات الراقية ذات الخدمات المتميزة لجنود جيش الدفاع أما تلك المستشفيات البدائية فكانت لهؤلاء

التعساء ، أصبحت أشاركهم تعاستهم وأفراحهم حينما كنت أخاطبهم بنفس اللهجة وبنفس الطريقة وأخبرهم بأنني ابنة كفر الشيخ ومن بنات عزبة كتكت ، كانت السعادة تغمرهم وقد شعروا بأنهم التقوا في الأسر بمصرية رغم الملبس الخاص لجيش الدفاع.

كل يوم كنت أستقي الأخبار عن ألجرحي المصريين وقد حاول مساعدتي أحد التابعين المتطوعين لجيش الدفاع من تسجيل أسماء ألجرحي والأسري ، زوته باسم الحبيب طارق وشعر الرجل بمدي لهفتي علي سماع أخباره فحاول جاهداً أن يقدم لي يد المساعدة ، اليوم العاشر من أيام الحرب شاهدته مسرعا في اتجاه القسم الذي أعمل به وكنت لحظتها منهمكة في إغلاق جرح قطعي لأحد الجنود المصريين ، توقف الرجل بعيداً حتي أنتهي من عملي ولكني شعرت به وشعرت بما وراءه من أخبار سيئة ، كنت في حيرة من أمري ، هل ألبي نداء الواجب وأنهي الجرح حتي يتوقف النزيف أو أبرد نيران قلبي المتشوق لأخبار الحبيب؟ لم أستطع ترك عملي ولكن دموعي انهمرت كشلال من المياه الحارقة مما جعل سحابة من الضباب أمام عيني لا أستطيع منها مشاهدة المصاب فما بالك بالجرح والغرز التي أقوم بها ، أسرع إليّ أحد الزملاء وتسلم عملي وتركني لدموعي وهنا أقبل الرجل الطيب ، تساءلت : خير ياعم يعقوب؟ بادرني وأخبرني بأن من تسألين عنه مصاب ونقل إلي مستشفي هاداسا ، كدت أسقط أرضا من شدة وقسوة الخبر ولكني استعدت زمام أمري بعد أن شعرت بأنه مصاب وانه يمكن أن يتعافى وينجو.

أسرعت إلي مدير المستشفي وعيوني تكسوها الدموع وقد وجل الرجل وشعر بأن وراء لهفتي ودموعي خبر وجل منه وتساءل مسرعا: هل والدك بخير؟ هززت رأسي بما يعني أنه بخير وتساءل عما أصابني من ضيق فأخبرته بالخبر الصاعق الذي علمته منذ دقائق ، طبطب علي كتفي مهدئا ولكني طلبت منه أن يساعدني لأنقل إلي مستشفي هاداسا ، لم يتحدث معي أو يجادلني بل كتب خطابا موجها إلي مستشفي هاداسا يخبرهم فيه بأن الطبيبة سارة ناحوم قادمة لتقديم يد المساعدة لكم بناء علي ما سبق وطلبتم منا هذا التخصص منذ أيام ، طلب من سائقه أن يسرع بى إلي مستشفي هاداسا كما طلب من إحدي الممرضات معاونتي في حمل أغراضي الشخصية.

هكذا وجدت نفسي أتجه إلي المستشفي التي يرقد بها الحبيب بين الحياة والموت ، كنت أطلب من السائق أن يسرع بالسيارة حتي أستطيع أن ألقاه خوفا من أصل بعد فوات الأوان ويكون قد رحل عن دنيانا ، كنت لا أنظر ولا أشاهد أي شيء من حولي وكل ما كنت أشاهده هي ذكريات الماضي السعيد ، كان أمامي برقته وقسمات وجهه الجميلة وابتسامته العذبة ، كنت أشاهده يلعب معي ومع بشري بل عدت لذكري يوم شجاعته بأن هوي علي رأس زناتي بقطعة من الحديد وأنقذني من هذا الذئب الأدمي ، لم أستطع لجم دموعي التي هربت من عيوني كما تهرب المياه من رمال الصحراء القاحلة.

وصلت إلي المستشفي ونسيت حمل أغراضي فلحق بى السائق وسلمها لإدارة المستشفي ، أسرعت لقسم الأفراد المسئول عن أحوال الأسري

والمصابين مستفسرة منهم عن الأسير طارق إسماعيل ، أسرع الرجل يتفقد الأسماء وتوقف بإصبعه الذي كان يحركه علي صفحات السجل وأشار إليّ بأنه يرقد بالعنبر السابع جراحة وهذا عنبر الحالات الحرجة ، أسرعت أعدو حتي وصلت إلي العنبر ووقفت علي مدخل الباب التقط أنفاسي ، أشاهد سرير الحبيب علي بعد مترين ، الحبيب مصاب وسوف أشاهد دمائه والنزيف المؤلم ، سوف يكون باكيا حزينا لما أصابه ، لن أستطيع أن أقبله أو أحتويه بين ذراعي.

أقبلت عليّ المرضة المسئولة تعرض علي خدماتها فأخبرتها بأنني طبيبة الجراحة القادمة من مستشفي سوروكا وسلمتها الخطاب ، أمسكت بيدي وسارت بي ووصلت إلي حافة السرير الذي يرقد عليه الحبيب ، حدثتني وكنت لا أستمع لحديثها جيداً حيث قالت بأن تلك الحالة الخطرة وصلت منذ ساعات والأطباء مشغولون في عمليات أخري واحدهم أخبرني بأن تلك الحالة صعبة وتحتاج إلي مهارة وخبرة و .... لم أسمع باقي حديثها ولكني انحنيت عليه وتفحصت الإصابة التي كانت شديدة وجروح غير منتظمة من أثر الشظايا التي قطعت بعض أجزاء من الكتف الأيمن والجانب الأيسر والساقين ، طلبت مساعدتها وأسرعت الفتاة التي كانت قريبة مني في العمر وقدمت لي كل مساعدة ممكنة كما انها لاحظت دموعي تسقط علي جسد المريض أثناء العمل مما دفعها لأن تجفف عيوني من حين لآخر.

شكرت الله أن النزيف توقف وأعطيته أمبول مطهر من التلوث وجففت عرق وجهه بل طلبت منها بعض الفوط المبللة وقمت بنظافة جسده والعناية به.

أقبل كبير الجراحين ونظر إلي ما قمت بـه وتفحص المصاب ثم شد علي يدي مهنئا ُحسن العمل وإتقانه وطلب مني العناية بتلك الحالـة وعليّ أن أتوجـه لبعض الإصابات الأخرى ، تركت طارق بين يدي الممرضـة التـي احتضنتني متسائلة : هل هذا الشاب قريب أو تعرفينه ، أجابتها دموعي فعادت تحتضنني ثانية وأومأت برأسها بأنها سوف تظل بجواره ترعاه ، توجهت لإصابات أخري وشعرت منذ تلك اللحظة بقوة ونشاط لا حدود لها بل شعرت بأنـه قد عاد إليّ جزء هام من وطني مصر بعد أن اشتممت رائحة الحبيب وتحسست جسده أثناء عملي بل قبلته بعد الانتهاء من تضميد جراحه ، كنت سعيدة ولكني كنت أخشي عاقبة الإصابة ولهذا لم أترك لنفسي العنان بالفرح والسعادة ولكن قوة الدفع تلك جعلتني أعمل وأعمل ، شاهدت مصابا آخر وشعرت بأنني أعرفه وكل مصاب أشاهده يعتريني شعور بأن تلك الوجوه السمراء رأيتها وتعاملت معها ، كنت أرغب في الصراخ قائلة أنا سارة المصرية ابنـة عزبـة كتكت ولكن المجال لم يكن يسمح بذلك.

ظللت أعمل في هذا اليوم حتي كدت أن أسقط أرضا من فرط الإعياء ، أقبل كبير الجراحين وشاهد ما قمت بـه من علاج الجروح والإصابات وأشاد بمهارتي طالبا مني التوجه لسكن الطبيبات للراحة لأنـه في الغد أمامنا أعمال كثيرة وكبيرة ، توجهت إلي سرير طارق وشاهدت وجهه الباسم ومازال في حالة الإغماء وأخبرتني الممرضة بأنـه أفاق من إغماءه وطلب بعض الماء

وتناوله ثم عاد لحالته ، شعرت بأن حالته في تقدم ولكن لن أطمئن عليه إلا بعد ُمضي أيام ثلاث.

ألقيت بجسدي المتهالك علي السرير المخصص لي وأقبلت بعض الطبيبات يحدثنني ببعض الأشياء ولكني كنت في حالة لا تسمح لي بأي حديث سواء من الإرهاق أو من فرط السعادة بأن أرسل إليّ الله بالحبيب إلي هذا المكان التي كنت أكرهه وما أزال ، كنت أرغب في أن انفرد بنفسي أحدثها وتحدثني ، طرت مع الأحلام والأمنيات وبأن طارق تحسنت حالته وبعد عدة أيام سوف يعود لمصر بعد تبادل الأسري وسوف ألحق به ونتزوج ، كدت أصرخ فرحا ولكن فرحتي وبهجتي خمدت ثانية لأنه متزوج ثم عادت إليّ رغبتي متسائلة: ولو .... فسوف أتزوجه وإذا لم أتمكن فسوف أعيش معه مثل الإنسان في بدأ الخليقة فلم يتم لآدم وحواء عقد قران أو عقد زواج فليكن لكن المهم الحب والتفاهم ولن يكون الأساس ورقة رسمية تخبر الاثنان بأننا زوجان ، انقلبت علي وجهي حتي أداري ابتسامة سعيدة ولم أدري بنفسي إلا في الصباح علي صوت صياح السيدة المسئولة عن الاستراحة تخبرنا فيه بالنهوض والاغتسال وأن طعام الإفطار سوف ُيعد بعد ثلاثين دقيقة وعلينا التوجه بعدها لأعمالنا لأن الصليب الأحمر الدولي قادم للتفتيش علي الجرحي والأسري.

****

لم ادري كم من الوقت مضى عليّ ولكني أفقت من الإغماء المتقطع وشعوري بوجودي بمستشفى وحولي بعض الأسرة وبعض أطقم تمريض من

أطباء وممرضات وتأكد لي بأنهم من الأعداء حيث الجميع يرتدي الزى العسكري ، هاجمتني حالة من الإغماءة للمرة الثانية ولم اعد أدرى فى اى مكان أنا او الوقت الذي مضى علي وجودي.

تنبهت مرة أخرى وشاهدت طيف "سارة" صديقتي الجميلة وشعرت بأني أحلم بحلم جميل حيث كنت دائم الشوق إليها رغم زواجي ثم تذكرت زوجتي وهاجمتني حالة الإغماءة مرة أخرى ، أسمع حديثا وهمسا بجواري ولكنني سمعت صوتا ًينادى عليّ باسمي هامسا بلهجة مصرية محببة إلي قلبي:

- "طارق" .. أنت سامعنى يا طارق؟ قوم يا طارق .. أنا "سارة" فاكر سارة؟

تنبهت وأبصرت حولي فإذ بى أشاهد سارة صديقتي وشعرت بأن الحلم الجميل عاد إليّ مرة أخرى وابتسمت لهذا ولكن لدهشتي أنني شاهدت يدها تحنو على وجهي برقة وتميل ناحيتي بجسدها ووجهها ُتحدثني وعيونها الخضراء مسلطة عليّ والتى لم أنسها .. تساءلت بخوف ودهشة :

- مين؟ سارة!!

- ايوه أنا سارة يا "طارق"

- مش معقول أنتِ وقعت فى الأسر؟

- أبدا .. انا هنا طبيبة بجيش الدفاع الإسرائيلي أداوى وأعالج المرضى والمصابين.

لم أستطع أن أصرخ ولكن كل ما استطعت ان أقوم به أنني أغمضت عيني ونظرت الى الجهة الأخرى طالبا منها بإشارة من يدي بأن تبتعد عني.

هزتني برفق طالبة مني ألا أعاملها على هذا النحو موضحة لي بأنها قامت بمراجعة جميع أسماء الأسرى حتى تستطيع تقديم يد المساعدة لكل من تعرفه وأخبرتني بأنها لم تترك أي جريح مصري وقعت عليها عيناها إلا وقدمت له العلاج اللازم طالبة من الجنود الإسرائيليين حُسن المعاملة لهم جميعا ولكن مجرد أن عثرت على أسمك تألمت كثيرا وحضرت من المستشفى التى أعمل بها الى تلك المستشفى حتى أكون بجوارك وها أنت ترفضني .. لماذا تعاملني هكذا ؟ ألا تعلم بأنني قمت بإجراء عملية جراحية لك حتى استطعت إيقاف النزيف فقدُكنت على شفا الموت .. أنهض يا "طارق" وحدثني حديث الصديق للصديقة والحبيب للحبيبة و المصري "طارق" الى المصرية "سارة ناحوم".

أسمع صوتا قريبا مني يُحادثها بالإنجليزية بجفاء طالباً منها أن تتعقل فى حديثها مع هذا الأسير والتى تقوم علي تدليله محذرا إياها بأنه للآن لم يتم إبلاغ أسمه للصليب الأحمر وانه يعتبر فى عداد الموتى بصحراء سيناء ، أعاد تحذيره إليها مرة أخري بأن تصرفها هذا قد يؤدى الى التخلص مني نهائيا .. صرخت به مما دفع بقائد المستشفى للحضور ودار حديث ساخن بين الثلاثة ومازالت أشاهدهم ولا أعلم الكثير منه ، فى النهاية انتصرت "سارة" على القائد العسكري الإسرائيلي حيث أخبره مدير المستشفى بأن ما تقوم به "سارة" هو من صلب عملها.

لم تترك "سارة" أي فرصة إلا وقدمت كل عون لي ولكنني مازالت كارها وجودها بجواري بهذا الزى المعادى لوطني لكنني لا أستطيع أن امنع أو

ارفض وجودها فأنا أسير وتحت سيطرتهم. بعد ان تركتني سارة فترة من الوقت عادت مرة ثانية برفقة الممرضة المسئولة عن الطعام وظلت بجواري أثناء تناولي الطعام رغم أنها تعمل مع القوات المعادية مما دفع بي للخشية عليها من الأذى بعد أن عاودني شعوري القديم بالصداقة وحبي لها خاصة أثناء لهونا سويا بصحبة "بشرى" ومن أجل هذا قدمت لها النصح بتركي لحال سبيلي وعدم الاهتمام بي ولكنها لم تستجب لنصحي وابتسمت لي ابتسامتها المعهودة والتى لا أستطيع ان أنساها أو أتجاهلها قائلة لي: إنني أهتم بك فى أوقات فراغي فأنا لا أعود الى استراحتي حتى أظل بجوارك.

بعد أن غادرت "سارة" الحجرة اندهشت لتلك المصادفة واعتبرتها مصادفة سعيدة بأن أجد أحد يتعرف عليّ فى الأسر يمد لي يد المساعدة خاصة إذا كانت صديقة قديمة ولها من العلاقات الأسرية والزمالة بيننا الكثير فهذا شيء عظيم قلما يحدث.

ظللت بمستشفى "هاداسا" عشرة أيام حتى تماثلت للشفاء وقررت إدارة المستشفي ترحيلي الى جهاز المخابرات الحربية الإسرائيلية للاستجواب ليحصلوا مني على بعض المعلومات .. بأحد مكاتب جهاز المخابرات المعادى تقابلت مع أحد الضباط اليهود الذي يجيد العربية وعلمت منه أنه كان يعيش بالمملكة المغربية .. كان الرجل مهذبا معي ولم يتطاول عليّ باللفظ أو الضرب مثل باقي الجنود الإسرائيليين الذي كنت أشاهد قسوتهم ودُهشت لهذا حيث كنت اسمع أصوات وأنين المصريين الذين يلاقون صنوف العذاب أثناء الاستجواب

، بعد مضى يومين عليّ وجودي فى هذا المكان جاءت "سارة" لزيارتي وعلمت منها أنها طلبت من الميجور "شاؤول" بحسن معاملتي لأنها مهتمة بأمري ، قدمت شكري لها وأخبرتها بأن الميجور نفذ ما طلبته منه.

كل ما قدمته من معلومات لمكتب المخبرات العسكرية الإسرائيلي وفى متناول يدي والتي نصت عليها القوانين الدولية أخبرتهم بها ، لم يركزوا معي في الأسئلة والاستجواب لأنهم علموا بأنني ضابط احتياط وليس لي خبرة طويلة بالجيش ولا أتقلد مركزاً هاماً.. عدت بعد أيام من الاستجواب الى معسكر صغير الحجم وشاهدت بعض الضباط المصريين الأسرى من مختلف الرتب العسكرية وظللت معهم ثلاثة أيام لم الق خلالها اى نوع من العذاب او الضيق أو سوء المعاملة ، فى اليوم الرابع اصطحب الجنود الإسرائيليون بعض الضباط المصريين الأسري الى جهة غير معلومة ، لم يعودوا بعدها مما دفعني للخشية على نفسي وسألت بعض الأسري عما حدث لهؤلاء فأنكروا علمهم بأي شيء يدور مما يدل على ان شيئا سيئا قد حدث لهم لأن من ذهب لم يعود.

تذكرت صديقتي "سارة".. أين هى الآن حتى توضح لي هذا الأمر؟ .. لم تمض دقائق إلا وشاهدتها قادمة بجمالها الفاتن وقد أضفي عليها الزى العسكري مزيداً من الجمال.. أقبلت نحوي فرحة سعيدة مرحة وأولتني كل اهتمام ، جلست بجواري تهدهد علي وجهي برقة ورومانسية عالية وبسمة وضاءة بين دهشة الأسرى الباقين الذين نظروا إليّ نظرات كلها ضيق وقلق ، أخبرتني

بأنها طلبت من المسئولين أن أظل بالأسر في القسم التى تعمل به وبالتالي سأصبح مساعدا لها أثناء عملها .. ابتسمت ومازالت تداعبني قائلة:
(بكده ح نفضل جنب بعض طول اليوم ثم غمزت لي بعينيها .. وممكن بعض الأوقات ليلاً) تركتني وغادرت المكان على وعد بلقاء فى الغد للعمل معا ..
بعد مغادرتها العنبر هاجمني بعض الأسرى ُسبابا ولعنا وبأنني جاسوس والقتل هو الشيء الوحيد لأمثالي ، لم يتركوا لي فرصة للحديث إلا بعد أن أخرجوا كل شحنات ضيقهم.

أجبتهم بهدوء وأخبرتهم بأن من تشاهدونها هى مصرية كانت تعيش معنا فى قريتي وأنا أعرفها منذ أكثر من عشرين عاما حينما كان عمري خمسة أعوام ولم أفترق عنها إلا فى عام ٦١ بعد صدور القوانين الاشتراكية بعدها هاجرت مصر ثم شاهدتها هنا لأول مرة وأنا مصاب وتصرفها هذا يدل على أنها مازالت تحتفظ بالوفاء للمصريين .. لم يقتنع البعض بهذا مؤكدين فى حديثهم بأنها لم تهتم بهم كما اهتمت بي ولكن البعض أشادُ بحسن تعاملها معهم وأنها طلبت منهم إذا ضايقهم أحد فليخبروها بهذا وهذا دليل على أنها فعلا مازالت تتمسك ببعض الحب للمصريين واحتمال أنها أضافت بعض الحب الى هذا الضابط لما تربطه بها من علاقة الجيرة والصداقة القديمة.

****

بعد انتهاء الحرب بأيام قلائل وتنازل الرئيس جمال عبدالناصر عن الحكم شعر المصريون بحجم الكارثة التى أطبقت على البلد ومازال الكثير من الجنود

مفقودين والذين عادوا شاهدهم الشعب وهم حفاه وملابسهم ممزقة والبعض مصاب او تورمت قدماه من كثرة ما سار فى سيناء تحت لهيب الشمس الحارقة .. أيقنت كل العائلات والتى لها أبناء يخدمون فى الجيش بأن أبناءهم لن يعودوا وكان من بين هؤلاء "هنادى" والتى بكت بحزن وألم حاولت معها عائلتها وصديقاتها تهدئتها ولكنها كانت ماضية فى حزنها خاصة عندما شاهدت طفلها الرضيع الذي أصبح يتيما قبل أن يتعرف على والده .. أثناء الليل كانت الكارثة مُحدقة بها فتنتابها حالة من الأنين والحزن والبكاء الصامت الهادر الدامع المتواصل دون توقف.

شحب لونها وفقدت جزءا من وزنها وتهدل شعر رأسها الجميل وأبيض سواد عينيها وأصبحت تسير فى القصر مثل السكير مترنحة وفى بعض الحالات تسقط من فرط الإعياء خاصة أنها كانت ترفض الطعام ومضت الأيام تلو الأيام وهى على هذا الحال خاصة ان بعض الأسرى أرسلوا بخطابات الى عائلاتهم عن طريق الصليب الأحمر وبهذا اطمأنت تلك العائلات على ان أبناءهم مازالوا على قيد الحياة وسوف يعودون إن آجلا أو عاجلا.

علمت "بشرى" بما أصاب صديقها "طارق" وأنه ُفقد فى الحرب فحضرت برفقة زوجها لتقديم واجب العزاء الى صديقتهم "هنادى" التى لم تقتنع بأنه مات بل أكدت لهما بأن "طارق" قادم وما زال حيا ولم يلق الشهادة بعد وأن إحساسها يخبرها بهذا وقد استفسرت منها "بشرى" طالما أنتِ متأكدة ولديك هذا الشعور لماذا إذن البكاء والحزن الذي اضعف صحتك وأدى بالتالي

الى إهمال الرضيع وصفى .. يجب أن تهتمي به حتى إذا عاد "طارق" شاهده في أحلى صورة وشاهدك أنتِ الأخرى كذلك.

ابتسمت لها ووعدتها بأنها قد تفهمت ووعت حديثها الذي دخل قلبها وعقلها ولهذا فقد نفضت عنها غبار الحزن وألقت بثياب النواح القاتمة خلف ظهرها ناظرة بعين خضراء وقلب يغرد متطلعا الى المستقبل والأمل المنشود بعودة الحبيب ثانية وأبدلت بكاء الليل بذكريات الحب بينهما وهكذا استعدت لعودة الحبيب طارق.

فى بيت اللـــه الحرام

بعد تلك الزيارة الميمونة من صديقة الطفولـة "بشرى" الـى زوجـة الـصديق الذي لم يعد وأصبح فـى عالم الغيب حدث تطـور ملحـوظ وملموس علـى حياة "هنـادى" فقد ودعت البكـاء وألقت بكـل مشاعر القلق والألـم جانبـا واسـتبدلت العبـوس بالابتـسامة والملابـس الـسوداء والقاتمـة بـالملابس البيـضاء والألـوان الزاهيـة التـى تعطـى إحساسا بـالربيع والحيـاة وتقاربـت مـع الأهل والأصـدقاء وواصلت حياتهـا التـى تناسـب عمرهـا وأغدقت مـن حبهـا وعطفهـا علـى ابنهـا "وصفى" وسمعتها الأسرة تدندن بالأغاني التى تعشقها وتحبها.

شـعر كـل مـن يعـرف "هنـادى" بأنهـا ليست علـى مـا يـرام وتلـك الأفعـال والتصرفات ليست من سلوك البشر الأسوياء وأنهـا فـى طريقهـا الـى حالـة من المـرض النفـسي الـشديد الـذي يـؤدى بحيـاة صـاحبه .. استشاروا الأطبـاء وقـد وافقـوهم الـراى والمـشورة بأنـه مـن الأفـضل عرضـها علـى أطبـاء الأمـراض النفسية حتى لا تتفاقم حالتها .. تحيروا فى إقناعها ولكـن أحد أشقائها قرر بأنـه هو الذي يستطيع إقناعها فهو الأكبر وتعتبره العائلة الخليفة لوالده المسن.

حادثها بكثير من الحب المغلف بالأبوة الحانية وقد استمعت إليه بكل صفاء الابنة والشقيقة الصغرى وهى تنظر إليه أثناء حديثه وعادت إلي الماضي عندما كـان يحملهـا علـى ذراعيـه ويشترى لهـا مـا تهفـو إليـه نفسها بـل يأخذها للعب

بالمراجيح وهو الذي كان يرافقها أثناء لعبها مع "طارق" خوفا عليهما من الضياع أو الإصابة أثناء لهوهما وهما صغار.

ابتسمت وأوضحت له أنها بصحة جيدة ولا داعي للطبيب .. إبتسم لها ابتسامته المعهودة لديها والتى تعلم بأنه مقتنع بحديثها لكنه يرجو منها ان تنفذ ما طلبه ولهذا وافقته الراى والمشورة .. رافقها الى الطبيب الذي تخيره الشقيق ، بالعيادة وفى جلسة قصيرة أتضح للطبيب كل شيء وعلم أنها قد غيرت فكرها وتصرفاتها بناء على عقيدة راسخة بأن زوجها الغائب عائد بإذن الله ولهذا فيجب أن يعود ويراها هي وابنها على أحسن ما يكون وكانت تلك النصيحة الغالية من صديقتها وصديقة زوجها "بشرى".. أسعد الطبيب ما قالته ، عادت "هنادى" الى قصرها أحسن حالا باعتراف الأطباء واندمجت فى حياتها مع السائرين الى الأمام.

استقبلت أسرة "طارق" ما حدث لزوجة أبنهم بالراحة فقد خشوا أن تظل على هذا الحال وتتطور الأمور وقد يحدث خلل فى قواها العقلية وبالتالي ينعكس هذا على وحيدها الذي هو نواره الأسرة وهو رائحة الابن العزيز الذي ُفقد فى الحرب.

أصابت نفيسة هانم والدة "طارق" حالة من الحزن الشامل ولم تكف عن البكاء الصامت والتى هي دموع الثكلى ولكن ماذا هم فاعلون أمام القدر وكيف التصرف والاحتجاج .. لا يستطيع أحد فعل هذا .. أما من جهة الأب "إسماعيل افندى" فقد هبط عليه إيمانه بمظلة النجاة من الحزن وكل ما قاله أن الله أسترد

وديعته ورغم حزننا ولكنك أخذت هديتك إلينا ولا راد لقضاء الله وإنا لله وإنا إليه راجعون.

مضت عدة أشهر ولم يستجد أي شيء يبعث علي الأمل في احتمال عودة طارق أو أنه مازال على قيد الحياة بل حدث الشيء المعاكس بأن أرسلت وزارة الحربية بمندوب لها لمقابلة والد طارق "إسماعيل أفندي" تخبره فيها بأنها قد علمت من بعض الأفراد الذين نجوا بأن وحدة المدفعية التى كان "طارق" احد أفرادها ظلت تقاتل حتى نال الجميع الشهادة وان إدارة التأمين والمعاشات سوف تقوم بصرف المستحق له فى تلك الظروف إلي حين التأكد لهم من استشهاده وقد شكرهم الرجل وطلب منهم أن يقوموا بإرسال كل مستحقات ابنه الى زوجته وابنها أما هو وأمه فإنهما يتنازلان عن ما يخصهم الى حفيدهم "وصفى".

علمت "هنادى" بزيارة مندوب وزارة الحربية ولكنها لم تتأثر ولم يطرف لها عين وكأن شيئا لم يكن بل قالت " ولو" لكنه مازال حيا يرزق وسوف يعود بإذن الله .. كانت الدهشة تعلو كل الوجوه من تصرفات هنادى ويقينها بأن زوجها عائد وأنه بخير كأنها تراه وتشاهده يوميا لكن الله لطيف بعباده ويعطيهم من الأمل والصبر الشيء الكثير.

فى أحد الأيام نهض الأب إسماعيل من نومه قبيل الفجر وأيقظ زوجته يحدثها هامساً وهى فى حالة من الدهشة فاعتقدت بأنه قد نسى أمراً ما يخص سفره الى القاهرة لإتمام إجراءات إحالته للمعاش لبلوغه سن الستين الأسبوع

القادم .. جلس يحادثها همساً بعد أن عب كوبا كبيرا من المياه ومازال آثر نور وجهه واضحاً فقال لها:

- شفت رؤيا !!

- خير يا أبو طارق؟

- (شفت يا ستي أن الشيخ عبدالحي البرديسي اللى كنت بأروح أسمع له فى الأزهر وأنا مش تلميذ عندهم لانني كنت بدرس فى مدرسة المعلمين لكن حبى للدين هو اللى دفعني أنى أروح أجعد مع طلاب الأزهر والشيخ عرف كده ووافج أنى أفضل أسمع وأستفيد وجال لى بعدها بكام شهر أنت يا ولد يا إسماعيل ربنا ح يفتح عليك والناس ح تصلى في يوم من الأيام وراك).

- شفت إيه يا أبو طارق؟

- آه .. شفت يا ستى الشيخ جاى وبيجول لي أسمع يا ولد يا إسماعيل .. ربنا قضى أنك تزور بيته أنت وزوجتك السنة دية ؟ بأجول السنة دية تروح تزوره زى حج أيام زمان حج المسلمين الأوائل يعنى تمشى وتركب جمال ومراكب وبلاش الطيارات بتاعة اليومين دوول وهناك فى بيته أطلب من ربنا طلبك وح يستجيب لك إن شاء الله .. فاهم .. حج زى بتوع زمان ومعاك مراتك.

نظرت الزوجة الى زوجها وهى التى تعلم عنه صدق القول والحديث بل كان يفسر للبعض ما يشاهدونه من رؤى وظلت عيناها تحدقان فى الحائط أمامها بدهشة متسائلة:

ـ كلام غريب. تحج زى بتوع زمان .. يعنى تتعب وتمشى وأنا معاك .. طيب يا راجل دا أنت سنك وصل الستين يعنى كبرنا أنا وأنت إزاى حنجدر على كده؟

نهض الرجل وأدى صلاة الفجر والصبح وقرأ ما تيسر من القرآن وكان يطلب من الله المقدرة على تنفيذ هذا الأمر الذي أتى إليه ولكن زوجته بعد الصلاة أخبرته بأن العام قد قارب على الانتهاء وأننا فى منتصف شهر ديسمبر فكيف نحج هذا العام؟

إبتسم لها زوجها موضحا بأن الشيخ يقصد طبعا موسم الحج الجاي ومش ممكن يقصد نهاية العام الميلادي وسوف يهل شهر رمضان بعد أسبوعين وبعدها بأكثر من شهرين ياتى موسم الحج ومازال أمامنا ثلاثة أشهر وهى كافية لنعد أنفسنا لهذا الأمر الإلهي كما أطالبك بألا تخبري أحدا بهذا ، طفرت منها بعض الدموع على الحبيب الغائب.

لم يمض أسبوعان إلا وشاهدت زوجته نفس الرؤيا ولكن آتاها تلك المرة والدها الشيخ عبدالعليم "القاضي الشرعي" الذى توفاه الله منذ خمسة أعوام .. نظر الزوجان بعضهما الى بعض وأصبح انه أمر وشيء لا مفر منه ولابد من تنفيذه.

أنهى "إسماعيل افندى" إجراءات المعاش ثم أستخرج جواز سفر له ولزوجته وبعدها أنكب على قراءة كتب التاريخ وكيفية الحج بالطريق البرى فأتضح أمامه أن الطريق البرى مغلق لاحتلال إسرائيل سيناء وكيف الحل وكيف تتصرف الحكومة المصرية فى هذا الأمر بعد احتلال سيناء.

بعد نهاية شهر رمضان أستعد الرجل وزوجته لتنفيذ الأمر الإلهي بالحج الى بيته المعمور بالطرق القديمة التى كان يتبعها المسلمون الأوائل وقد أشار إليه أحدهم بأن يسلك طريق الصعيد حتى يصل الى السودان ومنها يستقل قوارب الصيد التى تعبر ببعض البضائع والمعتمرين الى الأراضي المقدسة .. سار على نفس النهج واستقلوا جملين برفقة قافلة تجارية متجهة الى السودان وقد أعياهم طريق السفر من المشقة وطول المسافة.

بالسودان تعرفا على مقاول مسئول عن نقل البضائع وبعض المسافرين الى الأراضي المقدسة من فقراء المسلمين بأفريقيا .. قاما برحلة بحرية استمرت عشرة أيام وصلوا بعدها الى منطقة قريبة من ميناء جدة السعودي .. تسللوا الى داخل المملكة واتجهوا مع القافلة البرية سيرا على الأقدام الى مكة .. ظلت القافلة تسير بهم ثمانية أيام فى رمال الجزيرة العربية وصعوبة الحياة وندرة المياه لكن كان هناك شيء دافع على إستكمال الرحلة .. حج البيت بالطريقة التى سار عليها الرسول والمسلمون الأوائل .. نجحا فى الوصول الى مكة.

جلسا يستريحان من عناء الطريق وصعوبة العيش حيث أن جميع أفراد تلك القافلة من الفقراء الأفارقة الذين أتوا ومعهم القليل من الخبز وقطع من الجبن المملح الذي يحتاج الى شرب مياه كثيرة بعد تناوله وهو شيء عزيز المنال.

أستطاع "إسماعيل افندى" ان يطبب قدمي زوجته "نفيسة هانم" من كثرة السير وقد تورمت قدماها وتسلخت بعض أجزاء جسدها وهناك فى البيت المعمور قاما بمناسك الحج فاعتمرا وأديا صلوات كثيرة ولما كان الوقت ما زال

مبكرا على يوم عرفات لذا فقد استطاعا خلالها التوجه الى المدينة والصلاة فى مسجد الرسول وقد استمرت رحلة المدينة أربعة أيام وقد تعاون الناس لراحة "نفيسة هانم" وبعض السيدات العجائز بركوب عدد من الحمير والجمال.

يوم عرفه وهو اليوم المشهود وكما قال رسول البشرية الحج عرفه وقد أتى الناس من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم فى أيام معدودات وها قد أتى هذان الزوجان سيراً فى رمال الصحراء وركوب الجمال ولظى الحر وشظف العيش والجوع والنوم فى العراء فى كل من مكة والمدينة والمزدلفة و"منى" تقربا إلي الله بأن يتم نعمته عليهم ويريح أفئدتهم المشغولة بمصير الابن المفقود وهل مُنح صك الشهادة وأصبح الى جوار ربه او أنه مازال على قيد الحياة وإذا كان كذلك فلتنعم عليهم بالعودة المحمودة الى وطنه وأهله وأسرته الصغيرة وزوجته وأبنه الرضيع.

عاد الزوجان بنفس الطريقة التى سافرا بها وقد استمرت رحلة الحج ستة أشهر قاسا خلالها ما لم يقاسيه أحد من قبل لصعوبة السير والحياة الشاقة مع كبر السن وأنواء الحياة التي أرهقتهما ولكن ما كان يخفف من تلك المتاعب هو زيارتهما الموفقة الى بيت الله الحرام وإقامة أحد الشعائر والفرائض والتي أمرنا بها الله وزيارة بيته المعمور.

كانت أبنتهما "عائشة" تقوم على شئون إخوتها رغم أنها مازالت تدرس وفى نهاية المرحلة الجامعية وقد علم أهل القرية ومنهم "هنادى" بأن والدا زوجها سافرا لتأدية فريضة الحج وقد احتجت "هنادي"على هذا مستفسرة من

عائشة بأنها لو كانت تعلم لسافرت بصحبتهما ، ابتسمت لها عائشة دون حديث وكيف تسافر ابنة العز سيرا على الأقدام .

عاد الأب والأم بعد تأدية فريضة الحج .. عادا أحسن حالا وأيسر مالا وهما لا يعلمان من أين أتى كل هذا المال ، وزارة التربية والتعليم اكتشفت خطئاً فى حساباتها ووجدت أن إسماعيل افندى يستحق ترقيتين وقد تخطته الوزارة ولهذا قامت بتسوية حساباتها ودفعت له مستحقاته كما أرسل إليه شقيقه ببلدتهم يخبره بأن "المقدس أيوب" الذي كان يتولى شئون "ناحوم" اخبرهم بأن الخواجة ناحوم طلب منه فى حالة نجاحه فى التصرف فى ممتلكاته بأن يرسل بمبلغ (....) الى إسماعيل افندى شحاتة لرعايته لإبنته "سارة" لمدة سبع سنوات أثناء دراستها فى المرحلتين الإعدادية والثانوية.

أحتفل أهل القرية بالحجاج العائدين من رحلة الحج بعد انتهائها بأكثر من شهرين وكان باديا عليهما الإرهاق والإنهاك حيث كانت أم طارق تلف قدميها بقطع من القماش لما تسببت فيه طول مسافة السير على أقدامها من تورم وجروح كما تغير لون بشرتها وتحول إلي اللون الأسمر لتعرضها لفترة طويلة لأشعة الشمس المباشرة بالإضافة الى هزال البدن الواضح عليهما والنحافة التى صاحبتهما.

حينما علم أهل القرية بما كابده الزوجان من رحلتهما حتى انتابتهم مشاعر متناقضة .. البعض أكثر من الثناء على ما قاما به رغم فقرهما بأن يؤديا تلك الفريضة بأرخص ثمن مما أدى الى تأدية الفريضة سيرا على الأقدام والبعض

أقرهم بأنهم رغبوا فى الحصول على أكبر ثواب من تلك الرحلة وبهذه الكيفية سيرا على نهج الصحابة والأئمة الكبار ولكن لم يعلم أحد بما حدث من رؤيا الشيخين الذين أتيا الى الزوجين بالتوالي.

أقيم احتفال شعبي وديني كبير بعودة الحاج إسماعيل وزوجته بعد أداء فريضة الحج سيرا علي نهج الصحابة والمسلمون الأوائل تبادل فيه زملاء المهنة من الأساتذة إلقاء قصائد الشعر الدينية والمديح فيما سار عليه الرجل وزوجته.

فى ضيافة ســارة

استطاعت "سارة" أن تقنع قيادتها بالتحفظ على "طارق" فى منزلها وخلال تلك الفترة تستطيع إجراء عملية مسح لأفكاره وإحلال كل ما يخص الصهيونية العالمية من مبادئ وقيم بأن إسرائيل شعب محب للجميع ولا يضمر أي كراهية للعرب حتى ينقل كل تلك الأخبار الى الشباب فى مصر وخاصة ضباط الجيش الذي سوف يجالسهم ويتحدث معهم.

غادر طارق محبسه بين لعنات الضباط المصريين الأسرى لعمالته وخيانته لوطنه ، تركهم وهو فى أشد حالات الضيق فلم يكن راغباً فى تركهم كما أنه غير راغب فى أن تنفرد به "سارة" لأنه يعلم ماهى أفكارها ومدى تأثيرها عليه منذ بداية مرحلة الشباب ولهذا فهو راغب فى ان يقيم حاجزا من الصد والبعد عنها بدلا من أن تنفرد به نظرا لأنه فى وضع سيء فهو أسير وعليه تنفيذ التعليمات بل هى أوامر تصدر للتنفيذ دون تردد.

شاهد طارق الشقة التى تقيم بها "سارة" ، الشقة عبارة عن مسكن صغير معد إعدادا حديثا ومزود بجميع الأدوات الحديثة للمساعدة على المعيشة ، فى المقابل لم تحظ "سارة" بما كانت تتمتع به فى مصر .. فلم تجد الألفة التى يحيا بها المصريين ولم يشاهد النباتات الخضراء ولا نيل مصر العظيم كما ان الطقس بتلك المنطقة شديد الحرارة مقارنة بريف مصر ، بعد عدة أيام لاحظ

عدم التجانس بين البشر سواء فى الشكل او أسلوب الحياة فالجميع على خلاف وكأنهم شعوب متفرقة تجمعوا فى تلك البؤرة التى تسمى إسرائيل.

كلما جلس "طارق" منفرداً بنفسه سأل نفسه سؤالاً واحدا ومكرراً ولم يجد له أي إجابة شافية. لماذا طلبت سارة من إدارة معسكر الأسرى الاحتفاظ بى تحت سيطرتها وحمايتها؟ إنني لست مقتنعا او مصدقا قولها الذي ادعت فيه بأنها راغبة فى أن تساعدني وتقف معي أثناء فترة الأسر نظراً لما كنا عليه في الماضي من الصداقة الحميمة.

أثناء تنزه الصديقين "طارق وسارة" فى إحدى الأمسيات فى سوق مدينة "يافا" المطلة على البحر الأبيض التقيا مع أحد الأطباء الإسرائيليين وسار الثلاثة سوياً ثم انعطفوا على أحد المحلات ليتناولوا مشروبا ساخنا يقيهم برودة الشتاء القارص. تحدث الطبيب إلى سارة مستفسراً منها عما سبق وأن تحدثا فيه. ابتسمت له ابتسامة علم "طارق" مغزاها والتى تعني عدم رغبتها فيما سبق وأن تحدثا به. جلس الرجل قليلا ثم غادر المكان مستأذناً وهنا فاتحت "طارق" فيما سبق وأن أخبرها به الطبيب والذي يدعي إسحاق برغبته بالاقتران بها وهى رافضة لهذا وقد دُهش "طارق" من هذا الرفض موضحا بأنه طبيب وسيم لدرجة ملفتة للنظر. صمتت لفترة ومازال طارق ينظر إليها راغبا فى المزيد من الحديث عن سبب الرفض.

بعد قليل حدثته بالعربية حتى لا يفهم رواد المقهى بما تتحدث به:

طـارق : منذ حادثـة "زنـاتي" وأنـا رافضـة لأي علاقـة مـع أي رجـل إلا رجلاً واحداً! أترغب أن تعرف من يكون؟ أنت !! طـارق حبيب الطفولـة والشباب ، حين يقترب منى أي رجل تعتريني مشاعر وأحاسيس تلك اللحظـة المرعبة التى حـاول فيهـا "زنـاتي" أن ينـالني وأنـا فتـاة صـغيرة ، لقد سـبب لـي هـذا الحـادث صـدمة نفسية لم أبرأ منهـا وقد حاولـت فـى بريطـانيـا العـلاج منهـا دون نتيجـة وظلت عالقة بذاكرتي.

اضطرب الشاب فهذا يُعني أنها مازالت راغبة به وهذا يمثل مشكلة كبيرة أمامه لا يمكن علاجها فقد تزوج وأنجب كما أصبحت العلاقـة مـع اليهـود سيئة فكيف يعـالج تلك المشاكل المتراكمـة؟ خطـر فـى بالـه فكـرة رغـب فـى طـرحهـا عليها ويعلم مسبقا بنتيجتها. سألها:

هل لو طلبت منكِ تغيير ديانتك للإسلام لكى نتزوج أتوافقين علـي هذا الطـرح؟

ابتسمت له ابتسامتها المعهودة قائلة: لقد طرأ علـى فكـري هـذا الاقتـراح ولكننـي سرعان مـا أزحتـه جانبـا ، فمن الـصعوبة أن يبدل المـصريون عقيدتهم بـعقيدة أخرى ، تململ ثم استوضح منها:

لماذا إذاً دخل اليهود والمسيحيين في الإسلام فى بداية عصـر عمـرو بن العاص؟

أجابته بثقة زائدة:

فى بداية عصـر الوالي عمرو بن العاص كانت عقيدة الإسلام ندية خالصة اقتنـع بها البعض ورفضها البعض والسبب أن العنصر السياسي لم يكن قد تغلغل فيها أما الآن فالسياسة قد تغلغلت في الحياة حتى فى العقائد وخير دليل علي ما أقول

هو حال العرب وإسرائيل .. فالعرب يطلقون على إسرائيل يهود والإسرائيليون يطلقون على العرب بالمسلمين وكل هذا اندرج تحت السياسة.

لو ابتعد الساسة عن العقيدة لكان من السهل الأخذ بنصيحتك ولقد قرأت وفهمت الإسلام والمسيحية فترة السبع سنوات التى قضيتها معك فى منزلكم برفقة صديقتنا بشرى حيث وجدت أنه لا خلاف بين الديانات الثلاث إلا في أسمائها وأسماء الأنبياء وكتبها السماوية ولكن الكل يجتمع على عبادة الله والابتعاد عما نهي عنه والتقارب والعمل بما أوصي به ، لم أقرأ في تلك الديانات أمرا من الله بأن يحارب بعضنا البعض وأن نقتل بعضنا البعض وأكبر دليل على ذلك الحربين العالميتين الأولي والثانية فلقد اقتتل المسيحيون بعضهم مع البعض وهذا بسبب السياسة التى أفسدت البشرية والبشر.

****

عاش "طارق" طوال فترة وجوده مع سارة على أحسن ما يكون فكل شيء متوافر لديه كما أنها كانت ترافقه الى خارج منزلها يتنزهان فى الأماكن المخصصة لهذا الغرض خاصة لأن مدينة "يافا" تطل على البحر الأبيض وهى مزار سياحي ترفيهي يقبل عليه الشباب من كل جنس يلهون ويتمتعون بمياه البحر الجميلة ويقبل السياح يرتدون ملابس البحر الخفيفة ذات الألوان الواضحة والظاهرة وقد شاركتهم سارة بالسباحة واللهو بينما كان "طارق" قابعا على كرسي من كراسي البحر ينظر إليها بكل شغف لما تتمتع به من جمال طبيعي

وكان واضحا هذا بمقارنتها بمن حولها من الفتيات .. حاولت سارة إقناعه بنزول البحر إلا إنه اعتذر عن هذا.

فى إحدى المرات وأثناء خروجهما سويا اقتربت "سارة" من أذن "طارق" تحدثه:

طارق. انتبه وأنت فى الشقة ولا تتحدث بصوت مرتفع لأنك مراقب سواء بداخل الشقة أو خارجها .. اى إننا الآن مراقبان ولهذا خذ حذرك ولا يجب علينا التطرق الى مواضيع سياسية أو عسكرية حتى لا يؤخذ علينا ما نقول.

تنبه طارق لما تفوهت به "سارة" وُدهش لهذا لاعتقاده بأنها طالما كانت يهودية وإسرائيلية فلا مجال للتخوف لوضعها فى مجال الشك والريبة ، نظرت إليه نظرة ذات مغزى ثم علقت بقولها .. طارق هذه حياة وسلوك اليهود ليس الآن بل منذ قديم الأزل وهم متشككون دائما فيمن حولهم ولمن يقربهم وهم دائما معتكفون ويغلقون عليهم باب حياتهم أمام الآخرين.

****

تعافى كلٌ من "إسماعيل شحاتة ونفيسة هانم" مما ألم بهما في رحلة الحج الميمونة لبيت الله الحرام وقد كان أداء فريضة الحج بهذا الأسلوب مضرب الأمثال لكل من علم بها سواء فى قرية السبع التى يقيم بها أو فى عزبة كتكت بل أن الخواجة "تاناس" أقبل بصحبة زوجته "مارى" لتقديم التهنئة له وللفخار الذي يستحقه هو وزوجته لتلك الرحلة القاسية موضحا بأنكما اقتديتما بالسيدة

"مريم البتول" وابنها عيسى وهو طفل صغير حينما قررا المجيء الى مصر هربا من اضطهاد اليهود.

****

بدا واضحا على "هنادى" مقدرتها على تخطى الحدث الخطير الذي هاجمها وهى فى بداية حياتها العائلية ولم يكن هناك من يصدق أن تلك الزوجة الشابة فقدت زوجها منذ شهور قلائل ولم يظهر له اى أثر سواء كأسير حرب أو انه لاقى ربه شهيدا فى معارك الحرب والقتال.

بدا البعض من كبار القرية وعجائزها فى التحدث والتقول على "هنادى" بأنها كانت تريد التحرر من زوجها الفقير ابن المدرس الإلزامي والذى لا يضاهى أسرتها فى الجاه والمال ولم تكن تلكم النسوة يعلمن ما فى قلبها الصغير من حب وإخلاص ،

"وصفى باشا وبرلنتي هانم" غلفهما الحزن على ترمل ابنتهم فى بداية حياتها وعلى فقد زوجها رقيق المشاعر والأحاسيس وذكرياتهم فى القصر منذ الطفولة المبكرة قبل التحاقهم بالمدرسة ، كما أصابهم الألم حين مشاهدة صغيرتهم وهي تسير أمامهم حاملة رضيعها تلاعبه وتقبله وتعتني به عناية فائقة وسرحت نظراتهم إلي المستقبل البعيد متسائلين هل ستظل ابنتهم أرملة حتي يشب الصغير معتمدا علي نفسه ، كانت عيونهم حزينة تتنبأ عما يقاسونه من ألم وقد انعقد اللسان واختفت البسمة.

واصل كلٌ من "عادل قلادة وزوجته بشرى" زيارة ومتابعة صديقتهم "هنادى" وزيارتها من حين لآخر فى البلدة خاصة أن أسرة عادل وأطيانهم الزراعية ما زالت بالبلدة كما أن بشري كانت تصطحب زوجها لزيارة والدها "ثاناس ووالدتها "مارى" وكانت تلك اللقاءات تسعد "هنادى" الى أقصى درجة فهما من أصدقاء الدراسة والطفولة كما أنهما يذكرانها بالحبيب الغائب "طارق".

ظل والدا طارق على حالهما من التمسك بإيمانهما وأن الله هو الذي يحيي ويميت وان القدر لا راد لقضائه وان الآلاف من شباب مصر لاقوا حتفهم فى تلك الحرب وان الله فرض علينا القتال وهو كره لنا وما علينا سوى الصبر والإيمان بقضائه.

****

تألم "طارق" كثيرا حين تذكر ابنه الرضيع "وصفى" خاصة كلما شاهد فى الطريق أطفالا رضعاً مع أمهاتهم فكانت الدموع تندفع منه دون قصد رغما عنه وكان يحاول كبح جماحها دون جدوى فالعاطفة شديدة عليه وقد تأثرت "سارة" لهذا وهى غير قادرة على مساعدته حتى بارسال خطاب الى أسرته ليطمئنوا عليه.

عرضت "سارة" على صديقها "طارق" ملخصا لما تنوى فعله فى المستقبل وكان هذا أثناء خروجهما سويا خارج شقتها لتبتعد عن أجهزة المراقبة والتسجيل التى تأكد وجودها حتى فى سيارتها ومكان عملها مما دفعها الى

الحذر وسبب لها الضيق مما دفعها إلي التقدم برغبتها فى ترك الخدمة بالجيش الإسرائيلي ومغادرة البلاد لتلك المعاملة الغير شريفة وهى التى حضرت إليهم لتقدم لهم خدماتها فى مجال تخصصها وهى الجراحة.

كانت الفكرة التى اختمرت بعقل "سارة" هى العودة الى أرض الوطن الأصلي مصر والاستقرار مثل ما كانت حياتها منذ خمس سنوات بل أنها قررت أيضا أن تعود مع والدها "ناحوم" مع ترك تلك الأفكار التى كانت تعرضها الوكالة اليهودية على اليهود فى جميع أنحاء العالم وقد أدهش هذا "طارق" الذي استفسر منها متسائلا: أتتصرفين هكذا رغم انتصار إسرائيل الساحق على العرب ومصر بالذات الأقوى بالمنطقة؟

ابتسمت له ابتسامتها الساحرة الذى كان يخشى منها حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه ويصبح مثل "زناتي" النجس ، أكملت حديثها مفسرة مفندة رأيها بكل حجة ومنطق .. "حبيبي "طارق" هل من الممكن أن أعيش فى بلد يحيا على الحرب؟ لقد عشت فى مصر أكثر من عشرين عاما لم أسمع عن حروب إلا مع إسرائيل كما اخبرني والدي بأنهما طوال عشرتهما فى مصر والتى بلغت ما يزيد عن الخمسين عاما لم تعتدِ مصر على جار أو دولة أخرى .. عزيزي أنا أشعر بأنني أعيش وأحيا مع مجموعة من الخارجين على القانون وكل فترة زمنية يهاجمون الآمنين بل سلبوا وقتلوا العديد منهم.

كيف أعيش بهذا المجتمع؟ ما هو المجتمع الذي يقوم على تدمير مجتمع سابق وطرده من أرضه ومدنه ودياره؟ أنه لشيء سيء وصعب على النفس

الحرة السوية ان تتقبله كما أنك نسيت إنني كنت أستمع لك وأنت تقرأ فى كتابك المقدس بأن الله حكم على اليهود الذين يحيون بإسرائيل بالذلة والمسكنة لأنهم عصوا أمره.

إبتسم لها "طارق" سعيدا بما تقول ولكنه وجه إليها سؤلا: أستمع الى حديثك هذا والذى يسعدني بأنك وطنية الى أقصى درجة وتحبين مصر ولكن أعلم أن الكثيرين من اليهود المصريين فروا منها سواء لدول العالم المختلفة أو لإسرائيل .. لماذا هذا الفارق الكبير بينكما فى المشاعر والوطنية؟

أبدا عزيزي طارق فكلنا وطنيين مثلك تماما فأنت لا تستغني عن وطنك ولا يشكك أحد فى وطنيتك لأن الوطن جزء من تكوين الإنساني وهذا يماثل شخصاً يتنكر لوالديه وبأنه ليس ابنهما ولكن المشكلة ليست فى اليهود ولكن المشكلة فى الحكومة المصرية التى ضغطت على اليهود بأن حرمتهم من أملاكهم وتدخلت وتجسست على حياتهم الخاصة تحت شعار تأمين الوطن .. كيف تتجسس على ابن الوطن لتأمين الوطن؟ وضد من هذا التأمين؟ ألا يعتقدون ان ولاءنا لمصر وليس لإسرائيل ولكن حين صودرت الممتلكات وضيقت علينا الحياة مع نشاط وسائل الدعاية والإعلام ضدنا مما جعل إخوتنا المصريون يشعرون إننا لسنا منهم وأنهم مختلفون عنا وهنا شعر المصريون اليهود ان مصر ضاقت عليهم فهربوا بمصالحهم ولم يتركوا أموالهم لكى يحصدها الذين يمتلكون الحكم والقوة.

أراك تبتسم لي فى فتور ويبدو انك لا تصدق ما أقول ولهذا فسوف أوضح هذا بمثال آخر لعلك تتفهمه .. الإخوان المسلمين هم مصريون ولكن حينما ضيقت عليهم الحكومة الخناق فى أعوام ٥٤ وعام ٥٦ فروا الى خارج مصر ومنهم من توجه الى السعودية ولم يتحدث أحد بأن هؤلاء خونة توجهوا للسعودية لماذا؟ لأن للسعودية مكانة فى قلب كل مسلم وهناك يتم الحج وموقع نبيكم ونزول رسالة الله عليه فلها كل تقديس .. إذاً ما حدث لكلا الديانتين اليهودية والإسلامية واحد ولكن المسلمين غالبية وتعاطفوا مع الإخوان.

فهمت ما تقولين ولكن مازالت مشاعري تغالبني بأن اليهود لن يخلصوا لمصر ثانية؟

أن ما تقوله هو عين الصواب لما قامت به وسائل الدعاية والإعلام المصرية والإسرائيلية فقد اجتمعت الدولتان على هذا .. الكره من المصرين ضد المصريين اليهود وتشجيع من الإسرائيليين الى يهود مصر للعيش فى إسرائيل .. ماذا تريد ان يفعله إنسان طرد من بيته ووطنه وأصبح خارج بلاده وبلد أخرى تعرض عليه حق المواطنة مذللة له كل شيء .. كن واقعيا ومنطقيا ولا تكن مثل بعض الأشخاص الذين يتولون حكم مصر الآن.

****

مضت ثمانية أشهر علي وقوع "طارق" بالأسر وبدا بعض الأسرى المصريين فى العودة الى ذويهم دون أية أخبار عنه وقد تأكد لجميع من يعرفه بأنه نال الشهادة خاصة أن بعض الأسرى المصريين من سلاح المدفعية عبروا

موقع الوحدة التى بها "طارق" وقد أمرهم الإسرائيليون بترك اللوارى والهبوط منها وحفر مدافن لضحايا الموقع حتى لا تتحلل الجثث وتسبب لهم الأمراض وقد فعلوا ذلك والبعض أكد أنه شاهد أحد الشهداء وتعرف عليه بأنه زميله طارق أثناء الدراسة بكلية الضباط الاحتياط.

لم يتأثر والداه بما بلغ مسامعهم من معلومات فقد سلموا بالواقع واحتسباه شهيدا عند خالقه ومازالت "هنادى" على إصرارها بأن زوجها حي يرزق وفى كل زيارة تقوم بها صديقتها "بشرى" تؤكد لها هذا المعنى والصديقة فى دهشة من ذلك اليقين الذي استقر في صدرها وعقلها وهي تباشر حياتها تحت تأثير هذا الوهم.

بعض الأسرى أبلغوا قيادتهم بأن "طارق إسماعيل" الأسير أصبح عميلا للجيش الإسرائيلي وأنه يحيا ويعيش فى ضيافة أحدي الضابطات وتدعى "سارة ناحوم" والتي تتحدث المصرية بطلاقة وأخبرتهم بأنها كانت تعيش فى "عزبة كتكت" التابعة لمديرية كفر الشيخ.

نشطت إدارة المخابرات الحربية فى هذا المجال وتوجه البعض من ضباطها الى تلك العزبة ثم إلي قرية السبع التى تعيش بها أسرته وزوجته وبدا الاستفسار عن صلة طارق بسارة ناحوم .. حدث توتر ولغط في الحديث لدي طرح تلك الأسئلة والبعض فسره بمدى العلاقة السابقة بينه وبين سارة كما فسرته "بشرى" بمحاولات سارة لإقامة علاقة غير أخلاقية مع طارق وقد أدلت

بدلوها فى هذا المجال وروت كل شيء بوضوح لضباط المخابرات الحربية متوخية الحقيقة محاولة إنقاذ صديق الطفولة.

وقعت تلك الأسئلة على "هنادى" بألم نفسي كبير وتأكدت لها المخاوف التى كانت تتوقعها قبل سفر سارة ولكن بعد هجرتها هدأت واستكانت ولم تكن تتوقع ان يلتقي الاثنان فى إسرائيل وهما فى حالة عداء وقتال لكن تأكد للجميع بأن طارق مازال حياً يُرزق.

انتشرت الإشاعات والأقاويل عن طارق وأنه وقع تحت تأثير الحب من سارة لأن يصبح عميلا يتم تدريبه وإعداده ليعود جاسوسا يقوم بتنفيذ كل ما يطلب منه ، كان وقع كل تلك الأقاويل على أسرته الكبيرة والصغيرة سيئا للغاية وأصبحوا يشعرون بأن ابنهم جاسوس وأن الشعب ينظر إليهم بتلك النظرة التى توضح بأنهم أسرة خائنة ولا يجب التعامل معهم ولهذا تجنبهم الناس وأصبحوا منبوذين.

****

فى إحدى جولات "سارة وطارق" فى مدينة "يافا" على البحر الأبيض وفى يوم شديد الحرارة رغبت بالتمتع بالاستحمام فى مياه البحر الهادئة .. طرحت رغبتها على طارق الذي لم يرفضها ولكنه أخبرها بأنه سوف يجلس خارج المياه يتمتع بمشاهدة المناظر الجميلة. حاولت ان تقنعه بمشاركتها الاستحمام لكنه صمم على رأيه.

ارتدت المايوه الساخن البكيني والمكون من قطعتين صغيرتين وبلونه الأصفر الكناري وتوجهت الى المياه لتلهو وتتمتع بمياه البحر وبعد حوالي الساعة سباحة ولهواً غادرت مياه البحر واستلقت على رمال الشاطئ لتحصل على حمام شمسي يلون بشرتها البيضاء .. تركها طارق وسار بعيدا يلهو برمال الشاطئ يدفعها بقدميه والذي خلا من رواده. بعد أن ابتعد قيلا سمع صرختها التى لم ينسها منذ حادث "زناتي" أنها سارة. عاد أدراجه يعدو بأقصى سرعة فشاهد شخصا جاثما فوقها راغبا فى أن ينالها وهى تقاومه .. اقترب أكثر فأكثر وهى تنادى عليه بصوت مرتفع "ألحقني يا طارق" لم يكن ينتظر منها الاستغاثة فأسرع جهة هذا الوحش الآدمي ولكمه عدة لكمات فى وجهه ولكن الشاب كان قوى البنية فنهض تاركا "سارة" وهجم على "طارق وتبادلا الاثنان العراك باللكمات وقد سدد كل واحد للآخر عدداً من اللكمات القوية واستطاع هذا الشاب ان يطيح بطارق أرضا ثم توجه وأحضر سيخا من الحديد أراد أن يهوى به على رأسه لقتله. كانت سارة أسرع منه فأسرعت إلي ملابسها وأخرجت المسدس المسلم لها من قيادة الجيش من حقيبة يدها وأطلقت عليه رصاصة واحدة أردته قتيلا ، في تلك الأثناء كان رجال الشرطة قد اقتربوا من المكان على صوت صراخ وصياح سارة وشاهدوها وهى تطلق النار على الشاب الإسرائيلي.

اقتيدت الى التحقيق بينما توجهوا بطارق إلى المستشفى والقتيل الى المشرحة حيث سُلم بعدها الى أسرته وبعد تحقيق لمدة أسبوع حولت التهمة

الى طارق وأنه الذي كان يبغى الاعتداء عليها وأن هذا الشاب هو الذي هرع لإنقاذها ولكنه عاجله بضرباته القوية وحينما أرادت سارة الدفاع عن نفسها أخطأت الرصاصة الإتجاه وقضت على المدافع الإسرائيلي الهمام الشجاع.

أفردت الصحف الإسرائيلية الكثير من المقالات عن هذا الحادث ونقل بعضه الى الصحف المصرية عن طريق وكالات الأنباء وظهرت صور طارق مقيد الأغلال وصدق الخبر بعض المصريين حيث كان من رأيهم أنه سبق وقام بالعمالة ضد وطنه ولكن الذي لم يصدق الحدث هى "بشرى" الصديقة التى شاهدت ما وقع من "زناتي" ومحاولته الاعتداء على صديقتها لولا صديقها الصغير طارق الذي أنقذها من براثنه.

استطاعت سارة أن تلملم جرحها النفسي وتقدمت ببلاغ الى النائب العام الاسرائيلى موضحة حقيقة هذا الحادث .. بعدُ مضي أسبوعين سقطت التهمة التى ألصقت بطارق وغادر السجن وتسلمته قيادة الصليب الأحمر والتى سلمته بدورها إلي القوات المصرية حيث أودع سجن المخابرات الحربية للتحقيق معه فيما نسب إليه من أفعال .. بعد عدة أيام ثبت للمخابرات الحربية بأن الإدعاء علي طارق بأنه عميل أو جاسوس لإسرائيل هو محض خيال نظرا للتقارير الواردة من رجالها بداخل إسرائيل والتى توضح أنه لم يقم بأي شيء غير طبيعي أثناء الأسر.

ظهرت بعض صور له فى الصحف المصرية وكتبت عناوين ومقالات ملاصقة لها عن عودة البطل الجسور طارق إسماعيل الذي قاتل ببسالة تحت

قيادة الشهيد النقيب فريد ونوهت القيادة بأن وحدة المدفعية تلك أبلت بلاءً حسنا وكان هذا الخبر سببا فى رفع الروح المعنوية للشعب والجيش معا خاصة بعد الانتصارات الرائعة التى قامت بها قوات الصاعقة المصرية فى منطقة رأس العش وبسالة رجالها ومن بينهم الملازم عبدالوهاب الزهيرى والملازم فتحي عبدالله الذي أصدر الرئيس جمال عبدالناصر قرارا جمهوريا بترقيتهم ونال بعض الجنود والزملاء ترقية استثنائية ثم تلاها تدمير المدمرة الإسرائيلية "إيلات" بواسطة رجال البحرية الأفذاذ تحت قيادة النقيب بحري حسن حسنى.

انتشرت تلك الأخبار بين الشعب وفرح أبناء القرية كما أسعد هذا كلٌ من والديه وزوجته التى لم تسعهم الفرحة بل أن والديها أقاما احتفالا كبيرا لأبناء القرية من الفقراء وزعت خلاله الهبات العينية والمادية وعم السرور كل أبناء مصر .. أما عن صاحبة الحفل وهى الزوجة الرقيقة المخلصة المؤمنة "هنادى" فانتظرت وصول الحبيب الى القصر بعد ان تكفل والديها ووالداه بمرافقته وان تظل هي فى انتظاره ليسعد بها وبابنه الذي بدا يحبوا أولى خطوات سيره ويتحدث ببعض كلمات قليلة دارجة.

هبط البطل الأسير العائد بعد الضربات المتلاحقة التى قابلته وعاصرها وأنقذه الله منها .. عاد وشاهد الزوجة الحبيبة تقف أمام باب القصر فهبط مسرعا من السيارة التى أقلته وخطفها بين أحضانه راغبا بأن يخبئها بين ضلوعه حتى لا يفترقا ثانية ثم شاهد وليدهما وقد حملته الدادة "أم السعد" فحمله عنها ناظرا

فى وجهه البريء والطفل بدوره يحاول بأصابعه الرقيقة أن يمسك شفاه الأب الذي يحدثه ويقبله ودموع الفرح تهدر كشلال عاصف.

بعد أسبوع عاد طارق الى قيادة سلاح المدفعية وتسلم عمله مع وحدة مدفعية أخرى فمصر تعد جيشا لمقاتلة العدو وقد أصقلته تجربة القتال فى سيناء وأعطته الثقة القوية فى النصر.

لم يمض شهر إلا وأرسلت إليه إدارة المخابرات الحربية تسأله النصح فى قبول عودة "الدكتورة سارة ناحوم" والتى تقدمت بطلب بهذا الشأن إلي السفارة المصرية فى المملكة المتحدة .. أثنى طارق على الفتاة مشيدا بموقفها منه ومن باقي الأسرى وأنه سمعها وهى تحدث أحد القادة تليفونيا بأنها لا تقبل على نفسها بأن تقوم بالتجسس على بلدها مصر وقد دُهش القائد معتقدا بأن بلدها إسرائيل ولكنها سخرت منه وأخبرته بأن عائلتها نشأت فى مصر ويكفى زمن وجودهم بمصر والتى تتذكره والذي بدأ منذ دعوة النبى موسى وقد تعدى هذا الأربعة آلاف عام.

قدموا له الشكر وعاد الى وحدته وأصبحت حياته مشغولة بزوجته وطفله وعمله بوحدة المدفعية بجبهة القتال .. مضت عدة أشهر على استدعاء المخابرات الحربية له ثم اشتعلت جبهة القتال بين مصر والعدو الرابض على الضفة الشرقية لقناة السويس وكان أبطال تلك العمليات فى المقام الأول هم رجال المدفعية والدفاع الجوى والصاعقة الذين أصابوا الإسرائيليين بإصابات

جسيمة لم يتعودوا عليها لدرجة هروب العديد من جنود العدو من الخدمة فى الجيش الإسرائيلي لمن يُدفع به الى الجبهة الجنوبية فى سيناء.

في إحدى الأجازات الميدانية علم طارق بأن سارة قدمت الى مصر وسوف يلحق بها والدها وقامت بزيارة "هنادى" فى قصرها وأسعدها مشاهدة وصفى الصغير وأشادت بحب طارق لزوجته الجميلة "هنادى" مما دفع بهن الى الصداقة القوية.

افتتحت سارة عيادة طبية بوسط البلد وقرر الأصدقاء القدامى أن يتجمعوا ثانية ليستعيدوا الذاكرة لصداقة قاربت على الثلاثين عاما منذ نعومة أظفارهم وقد تقرر أن يقام الحفل فى مزرعة "تاناس" وهناك تذكر الثلاثة وبدون إفصاح ماذا كان يتم فى هذا المكان منذ خمسة وعشرين عاما حينما كانت الأعمار تقارب الخمسة أعوام وظلت الأبدان والعقول تنمو حتي بلغت ما بلغت الآن .. كانت كلٌ من سارة وبشرى تنظران خجلا الى الصديق طارق ولسان حالهما يتساءل ما يدور بفكره وخلده وقد لاحظ حيرتهما فابتسم لهما مشيرا بيده فى الهواء كأنها ذكرى ضاعت فى مهب ريح النسيان والزمان.

مضت الأعوام وانتصرت مصر على إسرائيل فى معركة رمضان أكتوبر المباركة بفضل سواعد وعقول الرجال وبفضل تحمل نساء مصر وبناتها أنات الألم والجروح النفسية لما أصاب الأحبة من جروح دموية أفضت بالبعض الى الشهادة والبعض بإصابات تم علاجها وكان للطبيبة سارة جهد خارق فى تضميد جراح أبناء وطنها من إصابات نتجت من عدوان أبناء ديانتها وقد

أنتصر الوطن على العقيدة لأن العقيدة لها أوطـان كثيرة أما الوطن فهو واحد وليس متعدد الجوانب.

اتفق الأصدقاء على عمل لقاءات شهرية وفـى المناسبات الوطنية أو الدينية وأصبح الجميع يحتفلون بأعيـاد البعض ويحضرون مناسبات سعيدة أو قادمة لاى فرد منهم وهم جميعـا يتذكرون ذكرى الكبـار من الآبـاء والأمهات الذين بذلوا الجهد والعرق والكفاح لتربية البنين والبنـات حتـى شبوا وأصبحوا رجـالا ونساءً يقومون بخدمة الوطن كلٌ فـى موقعـه وقد أصبح طـارق رئيسا للشركة التى يعمل بها ولديه البنين والبنـات اما سارة فلم تتزوج فما زال تـأثير هجمة "زنـاتي" عالقا بالذاكرة ولم تعد صالحة للزواج أو الاقتران بأحد سوى حبيبها الصغير طـارق ولكن طـارق هو الآخر لديـه أسرة ولهذا كبتت حبهـا فى قلبها حتـى لا تـضير الأصـدقاء فـصداقة الطفولـة عاليـة المعنـى والقيمـة وكـان من المشاهد المبهجة أن يتقابلوا جميعا بأسرهم والأطفال من حولهم يلعبون ويلهون فى قصر الجد الراحل وصفى باشـا وذكرى الأم الغاليـة برلنتي هـانم كمـا نسى الناس "ناحوم" المرابي وتذكروا الدكتورة سارة نـاحوم التـى بمشرطها وعلمها النابغ خففت الام الكثيرين وبدواء بشرى تم شفاء معضلات صحية كثيرة وباقي الزملاء كل فى موقعه سعيد فرح وهم ينشدون:

لك يا مصر السلامة وسلاما يا بلادي.

تمت بحمد اللـــه

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق الرسمية

٢٠٠٩/ ٢٠٨١٠



فى الصباح أقبلت سيارة لوري عسكرية وركبت علي
متنها متوجهة إلى مستشفى (سوروكا) بمدينة بئر سبع
والتى سوف اعمل بها كط
المستشفى عبارة عن معسكر ومستشفى للجيش الإن
خلال فترة الانتداب بفلسطين. فى كل
اصعد الى سطح المستشفى وانظر جهة الغرب الى
هناك أبناء وطنى وهنا أبناء عق
هناك المنشأ والحب والحياة وهنا السجن بـ
لا أستطيع التفكير وأتساءل ماذا ألـ
ودفعنى لأن أترك بلدى الحبيب مصر وأهاجر الى إ
دموعى ما زالت تسيل على خدى منذ قدومى الى هنا
قليلة. كل ليلة يهيم بخيالى انى عدت ثانية الى مصر الحبيبة
ولا بديل عن هذا سوى الموت